روايات ديانا

ديانا
DIANA

مُحاربة الزمان

دار اليوسف
بيروت - لبنان

فيوليت وينسبير

شعرت دستين أن حياتها وصلت إلى نهاية في يوم زفافها ـ نفس اليوم الذي قتل فيه زوجها الشاب المحبوب في حادث، فقط بعد الزفاف بعدة ساعات. لقد بذلت جهداً بأن وضعت الشيء كله خلف ظهرها فأخذت وظيفة في جنوبي إسبانيا، لرعاية امرأة شابة معاقة، لقد كان سوء طالع، حينئذ، أن قرارها أدى إلى لقاء الرجل الوحيد في العالم الذي كان أكثر احتمالاً لتذكيرها بالمأساة التي أرادت فقط أن تنساها ـ المشؤوم المدعو دون سيكاتريس، ذو ندبة ومرير، وهكذا لماذا يتوجب على دستين أن تكترث لأن هذا الرجل من بين كل الرجال كان ليتزوج من مريضتها الشابة الجميلة؟

الفصل الأول

جاء إلى هناك ضباب من كل الظلال التي طالت عندما تهاوت الشمس مع جمال ملتهب مخطط والسماء تعمقت إلى أزرق إرجواني كان لهذا المشهد صفة غير حقيقية، مما جعل دستين تتعجب إذا كانت تحلم أم أنها في الواقع مسافرة في القطار عبر حقول وأودية مصبوغة باللهب، متجاوزة مزارع عالية الأسوار وأطلال قلاع قديمة.

خيم الظلام فجأة، عندما تم تحذيرها أن هذا سيكون في هذه المنطقة التي كانت شبه استوائية، وقد أحزنها أن تفقد

مشهد أشجار النخيل المحلقة والقمة العالية المثلومة لجبال سانتا دي ليون.

هي كانت ستفضل السفر خلال النهار إلى مكانها المنشود، لكنه كان من المستحيل أن تحجز مقعداً مريحاً على أحد القطارات النهارية أو باص المسافة الطويلة. كانت كلها دائماً مزدحمة، أخبرتها الكونديسا، ودستين تجادلت مع المرأة التي عاشت في هذا البلد لمدة عشرين سنة، التي قبل زواجها من إسباني كانت صديقة مقربة لوالدة دستين.

لقد كان هذا لأن الكونديسا التي كانت تقيم في هذه المقصورة للقطار الليلي، التي كانت تقريباً فيكتورية في راحتها المحشوة وعزلتها، والستائر إلى الرواق مسحوبة إلى أسفل بحيث تكون لديها خلوة كاملة عن الركاب الآخرين. هي كانت ستفضل رؤية الأشخاص الآخرين يروحون جيئة وذهاباً، لكن الكونديسا قالت أن من الأفضل للمرأة أن تسافر لوحدها في الجنوب للحفاظ على نفسها.

كانت دستين ممرضة متدربة ولغاية الآن هي عملت في المستشفيات؛ والآن لأول مرة هي ستعمل بصورة خاصة لصديقة عرابتها. المرأة التي خسرت استعمال ساقيها بعد الإصابة بشلل الأطفال، الذي أقعدها بينما كانت في شهر عسلها. بعد فترة قصيرة تركها زوجها ويعتقد بأنه رحل مع امرأة أخرى؛ وكنتيجة لذلك هي غرقت في الوساوس مما أذهل عائلتها لدرجة أنه بناء على اقتراح الكونديسا هم وافقوا على

استئجار ممرضة إنكليزية لها، واحدة تستطيع أن تأتي كل الطريق إلى سانتا دي ليون لتكون في إشراف دائم على السنيورة أرانداس.

«أنت بالضبط النوع الصحيح من الشخص لهذه الحالة»، كتبت الكونديسا إلى دستين. «أنت عملية، وتحملت الكثير من الحزن بفقد زوجك، إن لديك شيئاً ما مشتركاً تماماً مع كوسيما ـ كلاكما فقد شيئاً ما بالغ القيمة في شهر عسلكما».

كانت دستين قد فقدت زوجها، الطبيب الشاب اللامع الواعد، الذي تحطم لدرجة الموت في سيارته مباشرة خارج المطعم حيث توقفا لتناول وجبة في طريقهما إلى كورنوول. كانت دستين قد نسيت محفظتها وعادت إلى الداخل لإحضارها ـ سيارة البنتلي الكبيرة اندفعت نحو سيارة مات خلال فترة غيابها القصيرة. زوجها منذ ست ساعات قتل على الفور، وأحياناً صرختها الوحيدة الرهيبة ما زالت تستأجر أحلامها وتحولها إلى كوابيس.

إذاً في ذلك الوقت هي لم تظهر أي انفعال فلأن ذلك حدث فجأة، لكن لفترة طويلة كان حزنها عميقاً وصامتاً. هي عادت إلى التمريض، وبدا للصديقات أن من الأفضل عدم التفكير بذكر مات. كان ذلك كأنه لم يكن، مع ذلك هناك كخاتم ذهبي على يدها اليسرى ليثبت أنه عاش وأحبها.

مصادفة غريبة بدت لتكمن تحت هذا اللقاء المرتقب مع السنيورة أرانداس. «كان ذلك مقصوداً ليكون، على ما أعتقد»،

قالت الكونديسا، عندما جاءت إلى القطار مع دستين وتأكدت أن لديها الطعام، والشراب، والكتب للرحلة. «كوسيما هي بنفس السن مثلك، يا دستين، والمرء قد يدعوكما أيضاً توأمتي الروح».

اراحت دستين رأسها على المقعد المحشو وأغمضت عينيها، بحيث أصبح إيقاع القطار مهدئاً ومخدراً، بحيث أنها غرقت في النوم ولم تكن عصبية داخلياً بأنها على وشك العمل في بلد غريب، بين أناس كانوا أجانب بالنسبة إليها. أنها عرفت اللغة الإسبانية كان واحداً من الأشياء المحظوظة؛ وعندما كانت والدتها على قيد الحياة هما أمضتا عدة إجازات مع الكونديسا وذلك سحر دستين لكي تتعلم اللغة، والكوند، ذلك الرجل الأكثر تودداً لها، قد ألح على لفظها وقواعدها ليكونا بالضبط، والتدفق لكلماتها هكذا فصيحاً لدرجة أذهلت الأشخاص اللاتينيين أن هكذا امرأة جميلة تتحدث بلغتهم كأنها كانت لغتها.

هي ابتسمت قليلاً... لا أحد منهم يستطيع أن يخمن أن دروسها اللغوية ستنتج في توظيفها بواسطة أشخاص لاتينيين عندما كانت هي امرأة في الرابعة والعشرين.

عندئذ تلاشت ابتسامتها وأصبح وجهها متأملاً. لا أحد يستطيع أن يعرف أن هذه ستكون مستقبلها، لأنه عند التاسعة عشرة هي التقت مات في مستشفى التعليم وهما أصبحا مخطوبين بسرعة. لكنهما انتظرا ليتزوجا، مؤجلينه حتى يتأهل

كجراح، وبذلك الوقت تكون دستين قد بلغت الثانية والعشرين.

لقد بدا غير معقول لدرجة أنه كان منذ سنتين تقريباً أن كان ذلك الحادث المريع... سنتان طويلتان وموحشتان اللتان فيهما بعض مرحها السابق قد فقد بريقه، وهي أصبحت امرأة مستقبل شابة مكتفية ذاتياً، ومؤهلة، ومتمالكة نفسها.

هي لن تتزوج ثانية.... من ذلك هي كانت واثقة. كان مات يعني العالم لها، وهي لن تستطيع ثانية أن تشعر بمثل هذا الجزء من كائن بشري آخر. ندمها الكبير كان أنهما لم يكونا عاشقين. مات لم يطلب ذلك خلال فترة خطوبتهما. كان لديه نظام عقل، وجسم، ويد دقيقة، هو سيكون، هي عرفت، جراحاً عظيماً وزوجاً مستقراً قوياً، حياتهما معاً كانت حياة جيدة مبنية بسلام على أساس الأمان لحبهما المتبادل واحترامهما لبعضهما.

الحب... الرومانسية... الزواج، قد انتهوا بالنسبة إليها. في الرابعة والعشرين كانت دستين شارد قانعة تماماً لتكون ممتازة في عملها، الحياة، ليس أي مزيد. ماتيو قد رحل، وكذلك والدتها المحبوبة. هي اعتقدت أن صدمة الحادث قد أضعفت قلب والدتها، لأنها أحبت مات كأنه كان ابنها.

تنهدت دستين... إنه لا يفيد أن تخططي لحياتك، لأن هناك عنصراً غريباً كان فيها هو الذي يقوم بالتخطيط، مثل اسمها هي كانت امرأة قدر... هي لم تعرف منذ شهر أنها

ستوافق على المجيء إلى سانتا دي ليون لكي تعمل. عندما رسالة الكونديسا وصلت لأول مرة هي كانت تميل لتجيب أنها تحت ظروف لا تستطيع أن تفكر بترك عمل مستشفاها... متى أو لماذا عوكس القرار هي لا تستطيع القول. لكن ذات مساء هي وجدت نفسها جالسة لتجيب على عرابتها أنها ستجده نوعاً من التغيير لتعمل في الخارج.

وها هي هنا، فقط على بعد ساعات من لقائها الأول مع مريضتها الإسبانية، في منطقة من الجنوب التي قالت الكونديسا بأنها حارة، وجميلة، ولا تزال موريسكية قليلاً.

لقد كان منتصف الليل يقترب عندما هزت مفاجئة لعجلات القطار حركت دستين من نصف النوم الذي غرقت فيه. هي نظرت إلى ساعة معصمها... بعد عشر دقائق وهم سيدخلون المحطة حيث ستنزل. كان المكان يدعى إكساناس، كلمة إسبانية تعني خيالي، مغري، جزء من السحر.

هي فتحت محفظة يدها الجلدية الذهبية، التي اشترتها في مدريد، حيث الكونديسا وزوجها لديهما شقة، وأخرجت مشطاً ومرآة ومشطت شعرها، الذي اتخذ قصة بسيطة واحتاج فقط إلى ضربتين من المشط ليبدو جيداً. هي كانت شقراء بطبيعتها، والخط الفضي الذي يسري من صدغها إلى مؤخرة عنقها لم يكن هناك ليضيف لمسة من السحر إلى مظهرها. لقد كان هناك منذ وفاة مات؛ النتيجة للصدمة التي عانت منها عندما ركضت من المطعم لتجد الجسم المهشم مكان الرجل الجميل الذي

تزوجته في الكنيسة فقط ساعات قبل النهاية المفجعة لحياته.

الرجل المسؤول كان يقود بطيش، في غضب ليجنب السيارة الكبيرة من طريق قط كان يركض عبر الفناء الأمامي للمطعم. في ذلك الجزء من الثانية هو هشم السيارة الصغيرة التي كانت واقفة هناك، تنتظر دستين. مجرم! هي أطلقت الكلمة في وجه الرجل الذي قتل زوجها وكل آمالها للمستقبل، وهي ستتذكر دائماً النظرة الرهيبة المفاجئة في عينيه.

هي كانت مريضة جداً لتحضر التحقيق، حيث بني على أن الظهور التعيس للقط على الممشى، والطريقة الخطرة التي أوقف بها الرجل الميت سيارته، قد توحدا للتسبب بالحادث ليس بأية طريقة من السكر أو خطأ بالقيادة، القضية أغلقت على ملاحظة من الأسف، وتكاليف محددة، وكان هذا هو كل شيء.

لكن من تلك اللحظة بدت دستين لتكره الرجال. هي لا تستطيع عندما يداعبها رجل، هي فقط تنظر إليه بعينين زرقاوين باردتين؛ فتاة تغيرت بين عشية وضحاها إلى امرأة باردة ومنبوذة، شفوقة نحو مرضاها، لكن عواطفها كانت مجمدة.

راضية بأنها بدت أنيقة ومرتبة حتى بعد رحلة طويلة نوعاً ما، جمعت دستين حوائجها معاً، وحاولت تجاهل الرفرفة الخفيفة لأعصابها في جذعها الأوسط، هي كانت عادة متمالكة نفسها تماماً، لكن هذه كانت هي المرة الأولى التي تصل فيها إلى مكان غريب عند منتصف الليل، لتأخذ حقيبة حذرتها الكونديسا

بأنها ستكون صعبة.

السينيورة أرانداس لم تعدل حياتها كمعاقة، ولا هي نسيت الرجل الذي خذلها؛ والذي لم يقف بجانبها الآن هي لم تعد المرأة الناضجة والمتذبذبة كما كانت.

رجال! تمتمت دستين الكلمة لنفسها عندما جرى القطار بنعومة إلى داخل المحطة، حيث أحيطت بأضواء حملت اسم المنطقة، إكساناس.

هي كانت الراكبة الوحيدة لتنزل على الرصيف الذي كان عميقاً بالظل حيث لا تنفذ الأضواء، وهي وقفت لحظة تشعر بإحساس من الهلع الذي جعلها ترغب في القفز لتعود إلى القطار. لكن ذلك سيكون عملاً صبيانياً وأحمق لتقوم به؛ إنه سيكون ترك مريضتها بلا معين، وعرابتها، التي قالت بصراحة أن دستين تحتاج إلى تغيير المحيط لفترة طويلة الآن.

هي رفعت حقيبتها عندما بدأ القطار بالتحرك بدونها؛ لقد فات الأوان الآن لكي تهرب، وبإعياء هي أخذت طريقها إلى مكتب المحطة، حيث حاجب نعسان تقبل تذكرتها وتمتم أن لا أحد مع سيارة ينتظر للسينيورة شارد. ربما يهمها أن تأخذ مقعداً وتنتظر؟ عندما هو قال هذا هي ألقت نظرة فضولية على شكله النحيل. أنها كانت أجنبية كان واضحاً، لكنه كان حائراً، هي عرفت، أنه يتوجب عليها أن تتحدث بلغته بهذه الطلاقة.

«أنا سأنتظر في الخارج وأمدد ساقيّ»، هي قالت. «أنا قمت برحلة طويلة، ولا يفترض بأن انتظر طويلاً لتأتي سيارة

وتقلني».

«هل السينيورة ستقيم في البوسادا؟» هو سأل، مع ذلك الفضول الطبيعي لبلد-لاتيني.

«لا، أنا ذاهبة إلى كاسيرا دي لاريجاس»، هي شرحت. «أنا الممرضة الجديدة للدونا هناك».

«الدونا؟» هو بدا حائراً قليلاً، «هل هي مريضة؟ نحن لم نسمع بذلك».

«أنا أتكلم عن السينيورة أرانداس»، شرحت دستين، «هي معاقة. . .».

«آه، لكن بالطبع». هو بدا مرتاحاً، «نحن جميعاً مغرمون بمركيزتنا ونحن لا نتمنى أن نسمع بأنها مريضة».

«المركيزة؟» لقد كان دور دستين لتبدو مرتبكة، «أنا لدي العنوان الصحيح، هذا ما أرجوه؟ السينيورة أرانداس تقيم في كاسيرا دي لاريجاس؟».

«حتماً»، هو أجاب. «هي ابنة المركيزة ـ ألا تعلمين؟».

عبست دستين وتعجبت لماذا الكونديسا لم تذكر هذه الحقيقة. هل هي فكرت أن العمل مع عائلة تحمل لقباً قد يهمل دستين. . . كل هذا اندفع متراجعاً، غضبها منذ سنتين؛ وإصرارها على أن المحكمة كانت متساهلة مع قاتل مات لأنه كان يحمل لقباً. المبجل شيء ما أو آخر. غير المبجل الرفيع في رأي دستين الذي لا يلين؛ هو استخدم النفوذ والمال ليفلت من حبل المشنقة حول رقبته، هي كرهته كثيراً.

«حسناً، طالما أن لدي العنوان الصحيح»، هي قالت، وتمالكت نفسها. «لقد جئت طريقاً طويلة وأكره أن أكون مرتهنة. . .».

«أنا أسمع صوت عربة، يا سينيورة، إذن يبدو أنك جئت إلى المكان الصحيح». ابتسم الحاجب بنعس، ولحق بها إلى الخارج في الهواء البارد قليلاً للمحطة، المناطق التي تكون حارة في النهار تكون باردة في الليل، ودستين ارتجفت قليلاً عندما شعرت بلمسة الريح، وشاهدت في الظلام العربة المقتربة التي يجب أن تكون لها. حوافر الخيل قرقعت على حصى الفناء الأمامي للمحطة وظهرت عربة ركوب تجرها الخيل، بدت من العالم القديم وبعيدة جداً عن الطريقة العصرية للحياة لدرجة أن دستين شعرت بإحساس غريب لكونها في عالم آخر، في عصر آخر، بحيث يتوجب عليها أن ترتدي قبعة مشقوقة وتنورة منفوشة بدلاً من طقم.

قفز رجل بدون صوت من العربة والأضواء كانت قاتمة جداً هنا لكي تتمكن دستين من رؤية وجهه. هي زعمت أنه كان خادماً من القلعة، لأنه لم يكن هناك أحد سواه ليقابلها في هذا الوقت من الليل.

«هل أنت السينيورة شارد من مدريد؟» هو سأل.

«الأمر هكذا»، هو كان رجلاً طويلاً بشكل غير عادي وهي كان عليها أن تميل رأسها لتنظر إليه، مع أنها نفسها لم تكن قزمة. هي كان لديها انطباع للشعر بأنه كان أسود لدرجة أنه لم

يكن منظوراً في الظل، وهي التقطت وميض عينين سوداوين، مرة ثانية هي ارتجفت، بدون سبب محدد، وعندما هو وصل إلى حقيبتها هي شعرت برغبة للإمساك بها، وأن لا تذهب معه، ارتفاعه أثار أعصابها، والغطرسة السوداء له عندما اقترب منها، مبعداً قبضتها عن الحقيبة.

«هل لديك أمتعة أخرى؟» هو سأل، وحاجباه اقتربا في عبوس عند طريقته المبدئية لمخاطبتها. هي سمعت من ممرضات أخريات أن الخدم لا يأخذون دائماً بلطف وجود ممرضة في المنزل. هي نفسها لم تكن لا خادمة ولا ضيفة، ودستين كان لديها شعور بارد مفاجيء بأنها قد ارتكبت غلطة في المجيء إلى هنا. هي ما كان يتوجب عليها أن تستمع إلى عرابتها وتقتنع بأن ذلك سيساعد على شفاء جروح قديمة إذا هي غادرت إنكلترا وجاءت إلى إكساناس لعدة أشهر.

«إذن دعينا ننطلق. . .».

«هل أنت من كاسيرا دي لاريجاس؟» الارتياب صبغ صوتها، وخيط من الشك. «هل أنت سائق العائلة؟». عندما هي قالت هذا سمعت دستين حاجب المحطة يلتقط أنفاسه بصوت مسموع؛ هي اعتقدت أنه كان على وشك أن يتكلم، لكن الرجل الذي جاء لإحضارها أطلق إليه نظرة كانت كافية لإيقاف الكلمات على شفتيه. هذا التبادل الصغير زاد إحساس دستين بتوقع الشر لدرجة أنها فعلاً أوشكت أن تستعيد حقيبتها. أصابعها اتصلت مع يده، وكأنها احترقت هي سحبتها بعيداً.

«تعالي!» هو تكلم مع صيغة من التبرم. «إنها ساعة متأخرة لممرضة لكي تصل إكساناس بدون حاجة لإضاعة مزيد من الوقت. أنا من القلعة حيث تنتظرك مريضتك، لذا ليست هناك حاجة لكي تعتبريني كالكونت دراكولا على وشك أن يحملك بعيداً إلى برج الوطواط».

«أحقاً!» دستين ليس لديها الكثير لتقوم به حيال الخدم اللاتين، لكن يبدو لها أن هذا الرجل كان وقحاً للغاية، لقد كان ذلك لأنها كانت ممرضة، بالطبع، لو أنها كانت ضيفة للعائلة لكان أسلوبه مختلفاً، وهي لحقت به إلى وسيلة النقل القديمة الطراز مع شعور تعيس بأن التمريض في منزل خاص سيكون مختلفاً كثيراً عن العمل في المستشفى. هناك الواحدة كانت جزءاً من فريق بدلاً من أن تكون لوحدها وتحت رحمة خدم عدائيين، التدخل المحتمل للعائلة والتصرف المزاجي للمعاقة نفسها.

حاولت دستين أن لا تنتفض مبتعدة كتلميذة عصبية عندما وضع السائق يده تحت كوعها ليساعدها في الصعود إلى العربة. «شكراً». هي جلست بسرعة في مقعدها وراقبت بحذر عندما قفز عند الجانب الآخر وأخذ اللجام. السرج جلجل عندما خبأ الحصان خارج فناء المحطة إلى الطريق المظلم الذي يقع أمامهما. هي كانت قد عرفت أن إكساناس كانت مكاناً ريفياً، لكنها لم تتخيلها في الأعماق البعيدة، القرية، حيث يجب أن تكون هناك واحدة، ربما تقع في الاتجاه الآخر، لأنهما لم

يتجاوزا مساكن لوقت طويل، وكل شيء كان صامتاً ما عدا وقع الحوافر على الطريق.

أضواء العربة أنارت الطريق فقط أمامهما، وهكذا دستين ما زالت لا تملك انطباعاً واضحاً عن الرجل إلى جانبها. هما تبين أنهما يقودان عبر حقول من نبات ما طويل الذي يحف كالقش، وأخيراً هي كان عليها أن تكسر الصمت، لأنه إذا كانت هذه هي حقول قمح، فهي لم تشاهد قمحاً ينمو بهذا الارتفاع.

«قصب السكر»، هو قال في جواب على سؤالها. «هذه المنطقة شمسها حارة وهي محمية بالجبال، وهكذا فإن العديد من المحاصيل هي من النوعية الاستوائية. بما أنك من إنكلترا، يا سينيورة، فإنني أرجو أن لا تجدي مناخنا رطباً شديد الحرارة لك. إنه قد يكون من المؤسف أن تأتي كل هذه الطريق فقط لتجدي أنك قد ارتكبت غلطة، شخصياً أقول بأنني أعتقد بأن ممرضة إسبانية ستكون مناسبة أكثر».

«أنا يمكنني القول» تكلمت دستين مع سخرية طفيفة، «لكنني فهمت أن ممرضة إسبانية - أو كان هناك عديدات؟ - لم يكن ناجحات في التعامل مع السينيورة أرانداس. لقد أعلموني بأن لديها أمزجة سيئة من الاحباط، وأن ممرضاتها اللاتينيات كن يملن إلى تشجيع نوباتها من الكدر بدلاً من جعلها تخرج منها. الدموع لا تفيد. هي لا تغير شيئاً، وفقط تجعل الشخص يشعر بمزيد من الأسف على نفسه».

«أنت تبدين باردة جداً وقاسية»، هو قال. «أنا مرتاح بأنني

لن أكون مريضك إذا كنت أنت غير تعاطفية».

«بالطبع أنا لدي تعاطف حيال الأشخاص المرضى، وإلا لما كنت ممرضة»، تووردت دستين قليلاً، وتعجبت لماذا وصلت إلى مثل هذه البداية السيئة مع هذا الرجل. إذا كان هو ممثل الموظفين في القلعة، فعندئذ هي في وضع عظيم.

«أعتقد أن من الأفضل أن أحذرك»، هو قال، «بأن المركيزة لن تتساهل مع أي شخص يكون قاسياً جداً مع ابنتها. هي كانت شعبية وخفيفة الروح ولديها أمل بحياة جيدة أمامها، فقط لكي يختطف كل شيء منها تماماً عندما كانت شفتاها عند حافة الكوب».

«لكن لديها حياتها»، قالت دستين بهدوء. «هي يجب أن تكون شاكرة لها، وأنا قد أضيف بأنني لن أكون غير رحيمة لمريض؛ أنا جئت إلى هنا فقط مع فكرة مساعدة السينيورة أرانداس لتتكيف مع نوع مختلف من الحياة. بعض ضحايا شلل الأطفال يفقدون الاستعمال الكامل لأجسامهم، لكنها تستطيع استعمال ذراعيها وتستطيع التنفس بدون مساعدة آلة تنفس. يجب أن تعترف بأن لديها مزيد من الفرصة لجعل الحياة سعيدة بدلاً من أولئك المشلولين كلياً؟».

«إذن دعينا نأمل بأنك ناجحة، يا سينيورة». كانت نغمة صوته ساخرة، ودستين أطلقت إليه نظرة وقررت أنه كان واحداً من أولئك اللاتينيين المستفزين الذين يؤمنون بالسيادة؛ وبالعيش في الماضي وتلقي العقاب لعدم العثور على السعادة. مستفزاً

لدستين لأنها، في أسلوب الكلاب، لديها أيضاً ذلك الموقف مع الاحترام لنفسها.

هي عرفت أن ذلك ليس صواباً، وهي ستبذل قصارى جهدها لكي تهز مريضتها خارج ذلك الإطار من العقل والقلب، لكن الأمر سيان فهي قد طبقته على نفسها. لأحلام نصفية. خمر السعادة اندفع من الشفاه. كيف هي فهمت جيداً، ويجب وسوف تحارب مع السينيورة أرانداس لتهجر أشباحها وتدع المستقبل يرشدها خارج ظلال الثقة الذاتية وفقدان الثقة في أنوثتها.

«هل لدينا الكثير لنذهب؟» هي لا تريد أن تتجادل مع الشخص الذي لا يوافق على تعيينها كممرضة في كاسيرا دي لاريجاس، والذي يبدو أنه يفكر بأن من الأفضل ترك المعاقة تستقر في الماضي. هي فقط تستطيع أن تأمل بأن لا تراه كثيراً. . . لا شك في أنه استخدم ليقود المركيزة في هذه الوسيلة الأنيقة للتقل، لأن الكونديسا كثيراً ما قالت أن الأرستقراطية اللاتينية لديها ميل للعيش مثلما عاش أسلافهم.

«ميل آخر أو نيف»، هو أجاب، في نغمة صوت لا تقبل المساومة. «إنها مستوطنة إسبانية، يا سينيورة، في منطقة منعزلة جداً من إسبانيا، ولا امتياز من أي نوع لشخص ما من إنكلترا، الذي اعتاد على التسليات الخرقية للتلفزيون والديسكو. القلعة بنيت على خطوط من منزل مغربي، ولفترة طويلة كانت هذه المنطقة في أيدي المغاربة. لقد كانوا هم الذين جلبوا أشجار

النخيل، والدفلة، والآزوليوس، والحدائق المائية. في عروق معظم الذين يعيشون هنا في إكساناس يجري عرق قوي من الصحراء، وتشابه للأسوار العالية التي تبعد الرياح الحارة والمتطفلين».

«هل تعتبرني كمتطفلة؟» شعرت دستين بتأكيد أنه يعتبرها متطفلة، ومع أنها أيضاً شعرت بأنها ملزمة لتسأله عن عمله، هي استرجعت كلماتها. كان هناك شيء ما حوله يوحي بالاحتقار، مع أنه لم يكن متراجعاً بملاحظاته الساخرة.

«أنا أعتبرك كممرضة جديدة ولا شيء أكثر»، هو قال. «إنه كان ما تريده المركيزة في اهتمامها لطفلتها، وهكذا دعينا نأمل بأن لديك الدواء المناسب لتقديمه».

«دوائي لن يكون حلواً جداً، أو مراً جداً، أنا أستطيع أن أؤكد لك ذلك، يا سينيور. أنا أنوي أن أبذل قصارى جهدي لأجل السينيورة أراندلس».

«دعينا نأمل أن نواياك الطيبة تدوم، يا سينيورة. الأمسيات قد تكون هادئة جداً في القلعة، وأنت شابة وربما تعودت على مرافقة الأطباء الشباب الذين تعملين معهم...».

«هذا الأمر لا يعنيك». هذه المرة الطبع تغلب على الحصافة ودستين كانت غاضبة جداً من هذا ـ هذا الخادم الذي يبدو بأنه يأخذ على عاتقه تقديم التحذيرات بدلاً من الترحيب بالشخص الذي عليه أن يجني عيشه تماماً كما يفعل هو؛ وهي لا تريد أن تجد أنها سافرت أميالاً لوظيفة غير متجانسة. كيف تجرأ هو

على افتراض أنها كانت من النوع المداعب؟ وكيف بوحشية غير واعية هو يقترح أنها تسلي نفسها مع طبيب... هي فقدت الطبيب الوحيد لها في العالم. الآن هما كانا فقط نموذجين يرتديان الأبيض من الذكاء والكفاءة؛ إذا كان لديهما السحر الذي فشل في إذابة الجليد حول قلبها.

«يبدو أنك عصبية»، هو تشدق. «بكل الوسائل استعملتها عليّ، مكونا رأياً منخفضاً جداً عني، يا سينيور».

«ربما نحن كونا رأياً متدنياً عن بعضنا، يا سينيورة، ساعة منتصف الليل قد يكون لها تأثير غريب على الأحاسيس، لأنها ساعة الساحر، أليس كذلك؟».

«نعم»، هي وافقت، وألقت نظرة مرتبكة على بروفيله الظليل.

«الساعة للأجراس، والوطاويط، والأشباح ـ أنت ستكون حانقاً لكي تخرج متأخراً هكذا لكي تلتقي ممرضة التي تعبر أنها تضيع وقتها ووقت كل شخص آخر في المجيء إلى هنا. شكك يثبط العزيمة، يا سينيور».

«أنا فقط لا أريدك أن تفكري بأنني أقودك إلى جنة الحمقى، يا سينيورة. موقع في جنوبي إسبانيا يمكن أن يعتبر بواسطة البعض كمكان للإجازة بدلاً من العمل، أليس كذلك؟».

«إنه لن يدخل في رأسي أن اعتبر هذا الموقع كنوع من إجازة في إسبانيا»، هي قالت بحنق. «يبدو أن لديك نظرية ضغينة للشعب الإنكليزي، كأننا جميعاً نسعى وراء وقت للمتعة ولا

نكترث على حساب من نحصل عليها! أنا لست واحدة من ذلك النوع، أشكرك!».

«الزمن سيخبرنا»، قال بسخرية. «أنت لن تدومي طويلاً في قلعة دي لاريجاس إذا كنت فقط شقراء أخرى ساحرة تسعى لصيد ظهير غني، مذهول ببشرتك الجميلة وشعرك الجذاب...».

«ماذا؟» قلما استطاعت دستين أن تصدق أنها سمعته بدقة. في كل حياتها لم يقترح أحد أن شعرها الكتاني كان غير طبيعي، وهذا كان هنا ـ هذا الخادم يقترح أنها صبغته!.

«إنه خارج قنينة، بالطبع»، هو قال. «أنا التقطت نظرة لشعرك بواسطة أضواء المحطة ـ ليست هناك امرأة يمكن أن تكون هكذا شقراء طبيعية، وأنا أعتقد أن النموذج بدأ في هوليود، أليس كذلك؟ لأفكر بأن هوليود كانت مرة جزءاً من الامبراطورية الإسبانية في كاليفورنيا!».

«أنت حر مطلق!» أعلمته دستين، وهج لعينيها الزرقاوين الذي كان لفترة طويلة بارداً كالفجر الإنكليزي. «بحق الشيطان من تظن نفسك لتحدثني بهذه الطريقة؟ أنا سأقدم تقريراً إلى المركيزة عن وقاحتك ـ أنا واثقة بأنها لن تكون مسرورة إذا عرفت كيف تتحدث إلى... إلى...».

«هل ستقولين ضيفة؟» هو تشدق. «زلة لسان مغشوشة، أيتها السينيورة، ألم أقل بأنه ليست هناك فتاة إنكليزية لديها مثل هذه الشياكة للوجه والقوام، بدون ذكر الشعر، يمكن أن تأتي إلى

إسبانيا فقط لإضاعة نفسها على امرأة معاقة؟».

«نعم، أنت قلت ذلك»، تكلمت دستين بغضب، «لكن ذلك ليس صحيحاً، أنا لدي الكثير من الاهتمام في الدلع مع الرجال مثلما ـ لدى ذلك الحصان! أنا أرملة...».

«أنا علمت، يا سينيورة، الأرامل الإنكليزيات، بعكس الأرامل اللاتينيات، لا يتعودن على الحجاب الأسود ـ مع أنه في حالتك الشعر سيبدو سالباً للب تحت الشريط الأسود».

«كيف تجرؤ على ذلك؟» شعرت دستين بصدمة باردة تبعتها موجة ساخنة من الغضب. «أنا فعلاً أنوي تقديم تقرير إلى المركيزة. أنا لا أستطيع الانتظار».

«ولا أستطيع أنا؟» هو تشدق، وفي تلك اللحظة انعطفت العربة حول منعطف في الطريق وكان هناك هبة مفاجئة من العطر عندما أسرعا تحت نفق من الياسمين. ياسمين! مثل انفجار نجوم صغيرة تقوست فوق سورين توأمين اللذين ظهرا ليكونا جزءاً من صف قناطر طويلة. الإدراك السريع بأنهما على وشك الوصول إلى القلعة كان إلهاء أبعد عقل دستين عن الرجل إلى جانبها ـ للحظة، على الأقل. هما وصلا إلى نهاية صف القناطر وانجرفا تحت قنطرة كبيرة، متجاوزين حزاماً محلقاً من أشجار النخيل وشلال كبير من كرمة مزهرة. كان الهواء منعشاً مع خليط من العطور، مقطرة ببرودة الليل بعد حرارة النهار التي احتفظت بخلاصة الزهور محجوزة بعيداً.

الانطباع الأول لدستين كان لقلعة قديمة نبيلة، تطوف حول

فناء ضخم، وتحلق إلى عدة أروقة، مع شرفات مستورة بالحديد.

«الرجل الذي أوصلها إلى القلعة قفز إلى الفناء مع تلك الرشاقة الصامتة التي لاحظتها من قبل. هو مد يده ليساعدها، وهي افترضت أنه كان هكذا معتاداً على المركيزة الكبيرة لدرجة أنه اعتبر الأمر مفروغاً منه بأنها سوف تحتاج إلى مساعدته للنزول.

«أنا أستطيع أن أتدبر أمري، أشكرك»، هي قالت، ولم تستطع فهم ردة فعلها ضد لمسته. هي اعتقدت أنه سيحاول الوصول إلى يدها لو أنها قفزت من الجانب الآخر للعربة.

هو فقط هز كتفيه وأخذ حقيبتها، تاركاً إياها تترجل على هواها. هي نظرت حولها، وشاهدت مرة أخرى الطريقة التي رتبت بها غرف الطابق الأرضي حول الفناء، كل واحدة ذات مدخل بيضاوي منقوش مكشوف بواسطة مصابيح الجدار.

مرافقها اقترب من أحد تلك المداخل، ومن ثم تلفت ليرى إذا كانت قد لحقت به... التقطت دستين أنفاسها، لأنه في تلك اللحظة ضوء أحد المصابيح سقط على وجهه وهي شاهدت ملامح محدد المعالم متغطرسة وحاجبان قويان يحميان عينين سوداوين بشكل غير معقول. الكبرياء لذلك الوجه الشبيه بالصقر لم يكن هو كل ما أخرس دستين، ولا الالتواء الطفيف لفمه الذي اقترح رجلاً ساخراً. ولا حتى الندبة الرهيبة التي ثلمت عبر الجانب الأيسر من وجهه، مضيفة إلى مظهر الوحشي

نوعاً ما، كانت كافية بحد ذاتها لتجعل كل الدم يتصفى من وجهها ويجعلها تشعر بأنها على وشك الوقوع إلى الأرض في إغماءة.

«أنت؟» هي همست، مع أنها شعرت كأنها صرخت إلى قمة سقف القلعة. أنت تصرخ بها إلى كل الآذان كما فعلت مرة، منذ فترة طويلة في كابوس، تصرخ بها في فناء أمامي آخر مع أشجار بلوط إنكليزي كديدبان بدلاً من أشجار نخيل باسقة.

هو حدق إليها، ولم يفهم نظرتها، ولماذا عيناها الزرقاوان اتسعتا متهمتان إياه.

«أنت»، هي قالت ثانية، «أم هل أنا جننت؟».

«هل يمكنني أن أقول، يا سينيورة، أنه ليس لدي أدنى فهم لما تتحدثين عنه». هو انتقل وضوء المصباح انزلق عن وجهه، تاركاً إياه مقنعاً ثانية بواسطة الظلال، والندبة اختفت والتقوس العميق لحاجبيه السوداوين فوق العينين السوداوين والأنف الصقري، لكنها عرفته... هي عرفته... لأن وجهه تردد في نومها القلق فترة طويلة لاعتراف لم يكن متبادلاً.

«لا تدعي»، هي صرخت. «لقد كنت أنت الذي قتل زوجي!».

«يا إلهي!» خيط من صدمة سرى في صوته العميق. «أنت هي تلك المرأة، المرأة التي توفي زوجها عندما سيارة ابن عمي صدمت سيارته... هل كانت ثلاث... لا، إنه منذ سنتين! ماذا أقول؟».

«أنت تقولها أليس كذلك؟» شعرت دستين أنها كرهته حتى أكثر لأنه لم تكن لديه الشجاعة ليعترف بذنبه. «أنا رأيتك، وأنا لن أنسى وجهك حتى آخر يوم من حياتي. . . على الأقل، عندئذ، لم تكن لديك الندبة، أعتقد أنك حصلت عليها في اصطدام آخر الذي ربما قتل شخصاً آخر!».

«أنا لدي ندبة عندما كنت فتى»، هو قال. «أنا كنت أدعى دون سيكاتريس طالما أستطيع أن أتذكر ـ إنه ابن عمي، يا سينيورة، الذي كان على عجلة قيادة السيارة التي قتلت زوجك. الماركيز فنسنت دي أوبريغون ـ مانوليتو، ابن عمي. ابن المركيزة، شقيق المرأة التي جئت إلى هنا لتمريضها ـ ألم يخبرك أحد، أيتها السينيورة؟ هل جئت إلى كاسيرا دي لاريجاس في جهل كامل لتلك الحقائق؟ في الواقع إنه أمر غير معقول!».

مانوليتو، ماركيز فنسنت دي أوبريغون ـ نعم، ذلك كان اسم الأجنبي الطائش الذي قتل مات. كيف يمكنها أن تنساه؟ ومع ذلك كيف كان ممكناً أن هذا الرجل ذو الندبة كان يشبهه كثيراً؟ ذلك الشعر الأسود، وتلك العينين السوداوين، وعظمتي الخد العاليتين والفم الذي يبدو كأنه نقش بإزميل!

«أبناء العمومة الأوائل، يا سينيورة، يتشابهون كثيراً»، قال، «مانوليتو وأنا كنا نعتبر كتوأمين، فقط لهذه الندبة التي أحملها على وجهي. أنا أعرف باسم دون سيكاتريس ـ اسمي الفعلي هو أرتيز دومينكان أمادور روبليز. والدتي هي شقيقة المركيزة؛

هي توفيت عندما ولدت وأنا نشأت في هذا المنزل، جنباً إلى جنب مع مانوليتو. كثيرون لا يستطيعون التفريق بيننا، لكن أنا لدي هذه الندبة، وأنت فقط، أيتها السينيورة، غريبة عن إكساناس، سوف تخطيئنني عن ابن عمي الباقون في إكساناس يعرفون أن مانوليتو توفي في حلبة الثيران منذ حوالي سنة. لقد كانت واحدة من إحدى مسراته، استدراج الثور. لقد كان واحداً من إحدى لعناته ـ أن يموت في سن الرابع والثلاثين. يقال في إكساناس أن هناك لعنة على عائلة أوبريغون، والأحداث يبدو أنها تحمل هذا الاعتقاد. ألن تقولي؟».

هو انتظر طويلاً وصامتاً لكي تجيبه دستين. كل ما استطاعت أن تفكر به كان أنه يشبه مانوليتو، وعرابتها يجب أن تكون قد عرفت هذا عندما رتبت هذا المركز لها، لماذا. . . لماذا بحق السماء هي فعلت مثل هذا الشيء؟ كيف يمكن لأشباح دستين أن ترتاح إذا هي في كل مرة نظرت إلى هذا الرجل المدعو دون سيكاتريس هي ترى فيه صورة حية لقاتل مات؟

«أنا. . . أنا لا أستطيع البقاء هنا»، هي قالت بشراسة. «يتوجب عليك أن تعيدني إلى المحطة لألحق بالقطار العائد إلى مدريد. . .».

«لن يكون هناك قطار آخر حتى الغد»، هو قال. «الليلة يتوجب عليك البقاء هنا. . .».

«لا»، هي هزت رأسها، «خذني إلى القرية، أو أي مكان. . . أنا لن أنام تحت السقف لذلك الرجل. . .».

«مانوليتو هو ميت، وأنت لا يمكنك أن تضعي اللوم لما قام به على أولئك الذين هم أبرياء من أعماله، ذلك لن يساعد أحداً إذا تصرفت بهذه الطريقة الهيستيرية...».

«أنت... أنا نلت ما فيه الكفاية منك ومن ملاحظاتك المهينة»، هي رشقته. «على الطريق إلى هنا أنت دعوتني مغامرة، وقلت أن شعري مصبوغ!».

«آه، هل أنا أزعجت غرورك؟» هو سأل بسخرية. «هل تكرهينني لأجل ذلك؟».

«أنا أكرهك أنت وكل عشيرتك»، هي قالت بمرارة. «أنا ما كنت جئت إلى هنا لو أنني عرفت ـ أوه، بحق الإله ما الذي جعل الكونديسا أن تفعل هذا بي؟ ما الذي امتلكها...؟».

«الشيطان، ربما؟» هو تراجع بصمت إلى ضوء المصباح ووجهه بدا شيطانياً عندما الندبة المثلومة قفزت إلى النظر ثانية، مخططة عظمة الخد اليسرى كأن مخلباً سحب عبر لحمه. «أنت أتيت إلينا كسينيورة شارد، مع ذلك لم يكن الإنكليزي الذي مات يدعى ميتشيل... ماتياس ميتشيل؟».

«ماتيو»، هي صححت بصلابة. «ميتشيل كان اسم زوجي، لكن عندما عدت إلى التمريض احتفظت باسمي الفردي. لقد كان كثيراً جداً لأحمل... كثيراً جداً تذكير بماتيو لأدعى باسمه كل دقيقة في اليوم تقريباً. أوه، يا إلهي، ماذا سأفعل؟».

«الليلة يتوجب عليك البقاء هنا»، قال. «نحن بعيدون جداً عن القرية، والوقت الآن قد جاوز منتصف الليل. الصباح

سيطلع قريباً».

«هي نظرت إلى القلعة بعينين كرهتاها. فقط ضوء واحد أو اثنان يمكن مشاهدتهما خلف النوافذ المزخرفة... حديد مفتول إلى شكل شريط ليطوق أسرار وآلام عائلة أوبريغون، لماذا فعلت الكونديسا هذا لها؟ هل هي فكرت أن دستين يتوجب عليها مواجهة مشاكل قريبة لمشاكلها... حتى، بطريقة، أكثر مأساوية أكثر من طريقتها؟

«دعينا ندخل»، قال دون سيكاتريس، ولم يكن هناك شيء آخر تستطيع دستين أن تقوم به سوى اللحاق به إلى داخل المنزل. الليلة هي كانت تحت رحمة الساعة، لكن حالما يبزغ الصباح...

«أنت ستوصلني إلى المحطة حالما يطلع الضوء؟» هي قالت. «أنا لا أستطيع الإقامة هنا... أنا لا أستطيع مواجهة ذلك! رؤيتك كل يوم! أنت تشبهه كثيراً ـ إنه أشبه برؤية نبش جثة الشيطان!».

«هل هو كذلك؟» هو التفت باختصار لينظر إليها وشفتاه تتحركان في ابتسامة خفيفة... ابتسامة لم تصل إلى عينيه السوداوين.

الفصل الثاني

المصابيح أحضرت، لكن نورها لم يكن ينفذ إلى الزوايا البعيدة لغرفة النوم. كانت هناك كهرباء، هو أخبرها، لكنها تطفأ بعد العاشرة للاحتفاظ بالمؤونة في مولد الممتلكات. هم كانوا معزولين جداً للمورد المحلي ليدير هذا البعد، حتى للمركزية.

عندما قال ذلك كانت هناك ثانية تلك الابتسامة القصيرة والساخرة على شفتيه، كأن القليل جداً لديه الطاقة ليسليه بعمق.

نظرت دستين حول الغرفة ورأت صليباً فوق السرير، مع غطائه الأبيض العادي وأعمدة طويلة منقوشة التي تعلق منها ياردات من الشبك لتسحب حول السرير عندما يكون مشغولاً. هذه كانت منطقة حارة ومصابيح الزيت تجذب انتباه عدة فراشات كبيرة التي تئز حول المصابيح وتلقي ظلالاً على الجدران البيضاء.

دائماً الجدران البيضاء والظلال القاتمة، فكرت دستين، لقد كانوا تقريباً رمزاً للمزاج اللاتيني، بدون أنصاف ظلال. لم يكن هناك تردد للملامح أو الشخصية. الرجال كانوا شياطين، أو كانوا قديسين. النساء كن أمهات، أو كن راهبات. لقد كان مزاجاً له سحره... ورعبه.

كانت النوافذ الطويلة مسدلة بالديباج الذهبي القديم الذي منه تلاشى التصميم منذ فترة طويلة، المصابيح التي علقت من سقف عال لديها مظهر مغربي حولها، والأثاث الضخم كان منحوتاً من الخشب الذي كان المقصود منه أن يدوم قروناً، ويبقى مصقولاً بشمع النحل الذي استطاعت أن تشمه وهكذا كان له وميض المعدن. عميقة كانت الخزائن، وكبيرة كفاية ليضيع فيها طفل.

توقفت بجانب السرير ورأت أربع تماثيل منحوتة على أعمدة السرير... ملاك وفارس عند كل جانب من استراحة الرأس، وتنين وشيطان عند الأسفل. حماية للنائم، حتى عندما يتقدم الخطر من الظلال.

تراجعت دستين مبتعدة عن السرير. . . لا، هي لا تستطيع أن تنام هنا! هي ستجلس في ذلك الكرسي المريح الموضوع قرب النوافذ، وتنتظر لطلوع الصبح. مع الضوء الأول هي ستغادر، لأن دون سيكاتريس سيكون فقط سعيداً جداً لينقلها بعيداً عن القلعة. مع أنه عرف أنها كانت أرملة ماتيو ميتشيل، هو من لحظة لقائها كان يشك بملاءمتها كممرضة لابنة عمه كوسيما.

على ساقين شعرا بالتعب والاهتزاز اقتربت دستين من الكرسي المريح وجلست على المقعد المستود؛ بعد لحظة أو اثنتين هي سمحت لرأسها بأن يهبط على مسند الرأس. يا إلهي، هي لم تشعر بهذا الإعياء منذ الأيام الأولى لترملها، وبكونها ممرضة فقد عرفت أنه إعياء الانفعالات التي صفت كل الحيوية من الجسم. وعرفت أيضاً أنها بحاجة إلى النوم، لكنها بعناد رفضت النوم في ذلك السرير الكبير، الذي سيكون كثير الظلال، وهكذا معزولاً عندما تطفأ الأضواء وتسحب الشبكة. هي ستشاهد كوابيس إذا نامت هناك، وهي ستأتي عندما لا تغيير لتغفو في كرسي. هي فعلت ذلك كثيراً عندما تكون في الخدمة الليلية.

أخذت الفراشات تئز حول المصابيح، وهي استطاعت أن تشم الدخان من الزيت مختلطاً مع تلك الرائحة لشمع النحل المختلط بالزعتر، الذي من المحتمل أن قماش السرير مختزناً به، جفونها المثقلة انجرفت نزولاً وكل إحساس أصبح خاملاً

عندما أخذ النوم يتملك عقلها وجسمها ببطء. أصابعها أرخت قبضتها على ذراع الكرسي وذراعها سقطا عند الجانبين. رأسها سقط جانبياً على المسند وشعرها الفضي رقد كجناح منفوش على وجهها، وفي النوم كل الشباب أعاد لها وجهها الجميل. . . وهي لم تكن مدركة تماماً للحظة عندما سمعت شخصاً ما يطرق على باب غرفة النوم، مع جدرانها البيضاء التي أخذت الظلال وجعلتها تأخذ الظلال وجعلتها تبدو حية. مع صلبانها المنحوتة من خشب فضي، وسريرها الضخم المحروس والمهدد بواسطة كل العناصر المعارضة في الطبيعة البشرية.

الرحلة والصدمة لتجد نفسها بين الأشخاص الذين ذهبت ألف ميل لكي تتجنبهم قد أخذوا ضريبتهم ودستين كانت سريعة النوم عندما فتح باب غرفة النوم وعينان سوداوان استقرا عليها في الكرسي القصب.

سار الرجل بصمت حتى على بلاط الفناء، وهكذا هو لم يحدث صوتاً بتاتاً عندما عبر الغرفة مع سجاد شرقي تحت قدميه، وهو وقف ينظر إليها، لكن دستين استمرت بالنوم، وكانت لتبقى ضائعة في مملكة النوم حتى تسلل ضوء شمس الصباح عبر زجاج النافذة البيضاوية فوق الصليب الخشبي الفضي وأرسل ألواناً لولبية في قوس قزح عبر الغرفة.

عينا دستين رفرفتا وانفتحتا عندما تلك الألوان المتأرجحة تلاعبت على جفنيها. هي رقدت ساكنة لعدة ثوان، تحدق إلى النافذة والصليب وتتعجب أين هي. هي نامت بعمق لدرجة أن

العودة إلى الإدراك كانت بطيئة... وعندئذ كل شيء اندفع وأعطاها شهقة فجلست، ووجدت نفسها ليس في المقعد بل على السرير، ملفوفة بلحاف، مع حذائها منزوع.

لكن... لكن كيف أصبحت هنا، على السرير، عندما هي تذكرت بوضوح أنها تمددت لقضاء الليلة في ذلك المقعد بجانب النوافذ حيث الستائر كانت لا تزال مسحوبة؟ هل هي كانت هكذا متعبة لدرجة أنها زحفت إلى السرير بعد كل ذلك؟ فخلعت حذاءها ولفت نفسها في اللحاف ضد البرد الذي زحف إلى الغرفة؟

الطقس ليس بارداً الآن. أشعة الشمس التي لمست يدها كانت دافئة، وذلك الدفء أعلمها أنها نامت أطول مما كانت تعني. هي قررت الليلة الماضية أن ترحل عن هذا المنزل عند بزوغ الفجر، وهي نظرت إلى ساعة معصمها لترى الوقت الصحيح، فقط لتجد أنها لم تعبيء الساعة الصغيرة فتوقفت في الليل. مثل هذا الضوء القوي للشمس يعني أن الوقت كان الآن حوالي السابعة أو الثامنة، ودستين رفعت اللحاف الأبيض عنها وكانت على وشك أن تضع قدميها على الأرض عندما طرقة مفاجئة على الباب جمدتها في مكانها.

هي كانت تحدق إلى الباب، عيناها خائفتان بغرابة في الإطار المنفوش لشعرها، عندما دارت المسكة وفتح الباب، امرأة وقفت هناك، تحدق بثبات إلى دستين. عندئذ هي تقدمت قليلاً إلى داخل الغرفة والحرير الثقيل لروبها خشخش حول

قوامها الرفيع والأنيق، كان شعرها مغطى بقبعة نوم حريرية، لكن لم يكن هناك شيء ناعساً جداً حول العينين اللتين حرثتا فوق دستين، واستوعبتا في الواقع أنها نامت بثيابها، وأنها رقدت على السرير بدلاً من النوم فيه.

«أنت وصلت متأخرة»، قالت المرأة، وهي تتحدث الإنكليزية مع لهجة جذابة مكسرة قليلاً، «وهكذا لم نقابلك الليلة الماضية أنت الممرضة شارد، أليس كذلك؟».

«نعم»، خرجت الكلمة بصوت أجش ودستين ابتلعت ريقها لإراحة جفاف حلقها. هي قدرت أن الزائرة إلى غرفتها كانت امرأة في أواخر الخمسينات؛ لا تزال جميلة، مع ذلك الجمال المتأصل في تركيب عظمي جيد بدلاً من الزيارات المتكررة لصالونات التجميل. عيناها كبيرتان... سوداوان كالهرمان مع لمسة من الشرق في طريقة شكلهما. بشرتها شاحبة كالعاج وغير مخططة تقريباً، وما أعطاها كامرأة تقترب من الستين العروق ليديها والخيوط المسحوبة للعنق.

لقد خطر لدستين بدون مفاجأة حقيقية عندما قالت: «أنا المركيزة، وبما أننا لم نقابلك الليلة الماضية فقد جئت للترحيب بك في القلعة. أنت يجب أن تكوني متعبة للغاية بعد رحلتك، أيتها الممرضة، بحيث غرقت في النوم كما أنت. أرجو أن يكون ابن أخي قد رحب بك؟ وأرجو، أيضاً، أنك لم تكوني - آه، لكنك ممرضة وشاهدت وجوهاً مث مة كثيرة. إنه لن يزعجك، أن تقابلي في وقت متأخر رجلا لديه ندبة؟».

«لا. . . .» هزت دستين رأسها، والإدراك خطر لها بحدة لدرجة أنها كانت على وشك أن تخبر هذه المرأة الوقورة أنها كانت لديها نية بعدم البقاء في القلعة، وأن المرأة ستعتقد أنها حمقاء خافت من وجه ابن شقيقها، الحقيقة الواقعية كانت أقسى بكثير. . . كيف يمكنها أن تبوح بها، وأنها كانت الأرملة للرجل الذي قتله ابن هذه المرأة بقيادته الطائشة؟ الأم تحب ابنها، شيطاناً كان أم قديساً. الأم تحترم ذكراه، خيراً كانت أم شراً.

«ما الأمر، أيتها الممرضة؟» بدت المركيزة مهتمة نوعاً ما عندما تقدمت نحو السرير، «هل أنت مريضة؟».

«لا، سينيورة مركيزة، أنا على ما يرام». تسللت دستين من السرير وبحثت عن حذائها وعندما ارتدته تصارعت بشراسة مع مشكلة إعلام المركيزة أنها لا تستطيع البقاء هنا؛ وأنها لا تستطيع أن تتولى مهمة الاعتناء بابنتها المعاقة. لقد كانت غلطة ابن الأخ أنها كانت في هذا الإحراج. هو كان باستطاعته أن يوقظها منذ ساعة ويوصلها إلى المحطة قبل أن تشعر عمته بوجودها هنا. هو كان باستطاعته أن يقول أنها لم تصل بتاتاً، لأنه لم يشاهدها أحد سواه الليلة الماضية. لا أحد من الخدم كان موجوداً في تلك الساعة المتأخرة، ومع أنه سألها إذا كانت تريد قهوة وهي قالت لا. لن يكون هناك أي دليل على وصولها ومغادرتها لو أنه أيقظها قبل أن يستيقظ الأعضاء الآخرون للمنزل. هي كانت رتبت أغطية السرير وغادرت الغرفة كبدائية

كما كانت الليلة الماضية.

الآن لقد فات الأوان لأجل ذلك. . . الآن عليها أن تختلق عذراً غير محتمل حول عدم البقاء هنا.

«أنا أستطيع أن أرى أن هناك خطأ ما». اقتربت المركيزة أكثر إلى دستين ودرست وجهها. «هل أنت لست سعيدة للعمل هنا، أيتها الممرضة شارد؟ هل أنت خائفة بأننا معزولون جداً. . .؟».

«نعم، أنا أخشى ذلك»، التقطت دستين هذا الخيط بسرعة للنجاة. «أنا ليست لدي فكرة بأن القلعة هكذا بعيدة عن القرية وأماكن الترفيه. أنا لا أعتقد بأنه ستكون هناك أية جدوى من إقامتي هنا. . . أنا من الأفضل أن أغادر رأساً. . .».

«حتى بدون مقابلة ابنتي؟» بدت المركيزة غامضة قليلاً. «أنت لا تبدين لي لتكوني شابة طائشة التي تحتاج إلى ترفيه دائم. . . أنا أشتبه بأن شيئاً آخر يزعجك. هل كان ابن شقيقي بأية طريقة ـ مثبطاً لعزيمتك؟ هو لم يكن متحمساً عندما اقترح بأن أوظف ممرضة إنكليزية، وهو ليس الرجل الذي يخفي الحقيقة بكذبة عذبة. ماذا فعل؟ هل أخبرك بأن النوع الخاطيء من الشخص لمركز الممرضة إلى كوسيما؟».

«حق، سينيورة مركيزة، يبدو أنه قلما يكون جديراً بالاستحقاق البدء بوظيفتي فقط لأنهيها في مسألة أيام. . .».

«هل أنت عادة تستسلمين بسهولة؟» ارتدت المركيزة ابتسامة خفيفة. «أنا أعلم أن ابن شقيقي يمكن أن يكون رجلاً مفزعاً،

لكنك لا تظهرين لي كشابة تخاف بسهولة من رجل، مهما كانت شخصيته قوية، أو كم بشعاً يفترض أن يكون وجهه. بكل تأكيد، أنت قمت بمثل هذه الرحلة الطويلة، أن لن تسمحي بأن تكون بدون جدوى؟ أنا أميل لأعجب بمظهرك، أيتها الممرضة شارد، أنت لديك عظاماً جيدة ومظهراً من الشجاعة. أرجوك أن تبقي! أعط لنفسك الفرصة لكي تحبينا ـ أنا سوف أفهم إذاً، في حوالي أسبوع، أنت قررت بأنك ارتكبت غلطة بالمجيء إلى إكساناس».

عرفت دستين أنها يجب أن تكون حازمة وأن تتجاهل مناشدة وسحر هذه المرأة التي لم تصبح مريرة تحت ضربة فقدان ابنها ورؤية ابنتها كسيحة. لكنها ترددت، وفي تلك اللحظة استعملت المركيزة حبل الجرس على الطاولة التي بجانب السرير.

«يجب أن تتناولي القهوة ـ أو الشاي إذا كنت تفضلين. وفطوراً، خادمتنا ستقوم بعناية ممتازة لك. هي تدعى فيكتوريا، وسلوكها الفظ قليلاً يخفي قلباً طيباً. أنا سأراك لاحقاً، أيتها الممرضة».

انغلق باب غرفة النوم خلف القوام الملفوف بالروب، وتركت دستين مع شعور بأن كل قرار كان حازماً لكنه أخذ منها برشاقة، وأن عليها الإقامة في القلعة فترة أطول، سواء شاءت أم أبت. عضت على شفتها، وشعور كأنها نزعت سلاحها في جبن، فسارت إلى النوافذ وسحبت الستائر لتسمح للأشعة الجنوبية بالدخول.

كانت دستين قد التقطت ثانية بسحر غير منتظر ـ لقد كانت شرفة للغنج والدلال، حيث قد تتدلل المرأة مع كتاب أو رسالة أو قطعة تطريز، وأن لا تتزعج بالعالم الخارجي، مع أنه سيكون هناك لكي ترى وتسمع، وتتنفس. ما هو ذلك العطر؟ أخذت دستين نفساً عميقاً وأدركت أنه كان تبغاً، حلواً وقوياً على الهواء الدافيء.

هل هناك مزارع للتبغ كمزارع قصب السكر؟ قال دون سيكاتريس أن المنطقة كانت استوائية تقريباً، حيث تنمو أشياء عديدة غريبة.

وقفت دستين على الشرفة ورأت الوميض لمجاري المياه الجارية عبر أحواض وبساتين القلعة. وبالإضافة إلى الشجيرات العديدة المزهرة الظليلة، كانت أشجار نخيل مع حزام غليظ يحلق صعوداً إلى قمة واسعة من أوراق متدلية. هي التقطت بريقاً من أجنحة متعددة الألوان وسمعت تغريد العديد من الطيور؛ وهي سمعت أيضاً زيز الحصاد... صوت الشمس، لجوجاً وفي اتحاد نغمات إجمالي، يصدر بطريقة غامضة من كل زاوية في الممتلكات، من مخلوقات صغيرة جداً غير منظورة.

هي كانت هكذا منهمكة بالصوت النابض المنخفض لدرجة أن دستين لم تكن مدركة عندما سيدة المفاتيح دخلت الغرفة. لقد كانت جلجلة المفاتيح على سلسلة ذكرتها بأصوات الحديقة إلى غرفة النوم، وهي التفتت بسرعة لتشاهد امرأة، وسلسلة

مفاتيح المنزل تتدلى حول خصر ثوبها. وجه المرأة كان أسمر كالجوز ومجعداً، ونظرتها السوداء كانت نفاذة.

«أنا سأتلقى أوامرك للفطور، أيتها السينيورة»، هي قالت. «وأجيب على أي سؤال لديك. أنت ستفهمين أنني امرأة مشغولة، لذا أرجوك أن تخبريني كيف تفضلين فطورك في الصباح. الشاي أو القهوة سيكونان متوفرين، لأن هذا منزل متحضر، بالرغم من اتهامات الممرضات السابقات بأننا نعيش في المؤخرة وليس لدينا جهاز تلفزيون لنراقب عليه قصة من بورجيا».

لقد كان لصالح دستين أن احتفظت بوجه مستقيم، مع أنها اشتاقت لكي تبتسم على ملاحظة مديرة المنزل. كانت المرأة شخصية، وفقط هنا في المنطقة الجنوبية من إسبانيا، حيث عدد من الأشياء ما زال ينتمي إلى الماضي، وكان ممكناً أن تلتقي نوعها.

دخلت دستين من الشرفة، وعلى الفور هي كانت واعية للمظهر الذي نامت فيه عندما العينان الحادتان جستاها من رأسها إلى أخمص قدميها.

«أنا أفضل إبريقاً من الشاي الإنكليزي، إذا تكرمت. هل الممرضات السابقات يأكلن هنا، أم في المطبخ؟ وأرجو أن تخبريني أين يقع الحمام».

«يمكنك أن تتناولي الفطور هنا في غرفتك، أيتها السينيورة، مع أنه يوفر سيقان موظفاتي إذا أكلت في الطابق السفلي. ليس

في المطبخ، لأنك لست عضوة من الموظفات، لكن في غرفة الصباح أو في الخارج على أحد الأحواض. والآن إذا سمحت سآخذك إلى غرفة الحمام التي هي مناسبة تماماً لهذه الغرفة».

«أشكرك». لحقت دستين جلجلة المفاتيح على طول الرواق، الذي يؤدي في اتجاه واحد إلى السلم، وفي الآخر إلى سلسلة من الأبواب المنقوشة مثل باب غرفتها.

هما سارتا متجاوزتين تلك الأبواب حتى توقفت مديرة المنزل عند الطرف الأخير من الرواق. «هذه هي الغرفة للحمام، والدوش، والتواليت، يا سينيورة. ستجدين أن مورد الماء يختلف مع الكمية المطلوبة بواسطة الدون لري المزارع. الماء ثمين لنا في هذه المنطقة وهو يضخ في بعض الأوقات من الجبال. إنه بلون غريب أحياناً، لكنه إجمالاً يستعمل».

«هل هو دافئ؟» أرادت دستين أن تعرف.

هزت فيكتوريا كتفيها، «أحياناً نعم، وأحياناً لا. أنت يجب أن تتعلمي أن تأخذيه كما يأتي، يا سينيورة. من المفهوم أن بلدك لديه كل الوسائل العصرية، لكن عندما نتقطع من البنزين لضخ المولدات فإن ابن إسكاميلو يقود لأميال عديدة لكي يشتري المزيد. الممرضات! هن يعتقدن أنهن يجب أن يعاملن كالنبيلات الزائرات!».

هذه المرة لم تستطع دستين أن تكبت ابتسامة. «أنا أؤكد لك أنني لم أتوقع أي نوع خاص من المعاملة»، هي قالت. «القلعة تبدو لي مؤسسة جيدة الإدارة وأكثر جاذبية. أنت تحدثت عن

الدون، لكنني فهمت أن المركيزة هي أرملة، وأن ابنها الوحيد توفي في حلبة الثيران».

لقد كلف دستين جهداً لتقول هذا بهدوء، لكن إذا كان عليها أن تبقى هنا في المنزل، عندئذ سيكون عليها أن تشارك نفسها مع كل تلك التفاصيل التي حجبتها عنها عرابتها.

«زوج المركيزة توفي منذ فترة طويلة، وأنه لصحيح أن ابنها الوحيد فقد منها. لكنك التقيت الدون. إنه هو الذي أحضرك إلى القلعة، مع أنه كان يجب على أسكاميلو أن يأتي لإحضارك. ابني كان في مهمة طوال ذلك اليوم، وهكذا دون سيكاتريس قاد إلى المحطة، بدون أن يستعمل السيارة، لأنه كانت هناك قطعة غيار ذهب ابني لأجلها وأقرب مرآب هو على بعد عدة أميال. نحن منعزلون جداً».

أضافت فيكتوريا هذا بصرامة نوعاً ما، كأنها عرفت سلفاً أنه سيؤدي بعد بممرضة أخرى كي تغادر في وقت ليس بطويل. إنه لن يكون عزلة، كما عرفت دستين، نوعاً ما أنه لن يقلقها أن تكون في قلب البلاد... إن ما يقلقها فقط هو أن تكون في قلب هذه العائلة.

«إذن هو السيد»، هي تمتمت. «الرجل الذي في القيادة».

«دون سيكاتريس أدار الممتلكات للسينيورة المركيزة لسنوات عديدة».

فيكتوريا أعطت دستين نظرة حادة، كأنها لا تسمح بالهمس ضد ذلك الرجل ذو الندبة، «ابنها لم يكن مهتماً بالمزارع، ولا

بالمال الذي تؤمنه. هو لديه المظهر والسحر، لكن الدون هو الرجل، هو عنيد، ولا أحد سيغيره».

عازب صلب، بعبارة أخرى. موضوع في طرقه، وربما مدرك أن وجهه من غير المحتمل أن يوحي مشاعر رومنطيقية في النساء صورة عقلية لوجهه ذي الندبة رفرفت داخل وخارج عقل دستين. في الضوء النصفي للقاعة الليلة الماضية هو حمل شبهاً مخيفاً لمانوليتو الميت، وشعرت دستين بفضول متحرك كيف سيخطر ببالها عندما تشاهده في ضوء النهار.

«إذن هو الدون؟» هي تمتمت.

«ولماذا لا؟» سألت فيكتوريا. «من لديه حق أفضل؟ لو أن تلك الحمقاء كوسيما لديها أي إدراك لتزوجته».

«لكنهما ابني عم»، تعجبت دستين.

«وماذا؟ هل أبناء العمومة لا يتزوجون في بلدك، يا سينيورة؟ هنا في إكساناس يحدث ذلك كثيراً، ولا أحد أسوأ من ذلك. إذا كانت هناك سمات حسنة في العائلة، عندئذ هي تتضاعف بمثل هذا الزواج».

«وماذا إذا كانت هناك سمات سيئة؟» سألت دستين، «فهي أيضاً، ستتضاعف ـ ربما لهذا السبب يتردد ابني العم. بعد كل ذلك، فشقيق كوسيما لم يكن قديساً ـ أكثر من حيوان شبق».

حدقت فيكتوريا بعينين حادتين إلى دستين. «مهما كانت الهياكل البشرية، في خزائن هذه العائلة، فالأمر لا يعنيك، أيتها الممرضة. إنه فقط مكانك للعناية بكوسيما، وإذا استمعت إلى

القيل والقال حول شقيقها، عندئذ يجب أن تحتفظي به لنفسك. هي كانت مغرمة جداً به. لقد كان بمثابة صدمة كبيرة عندما قتل وساءت حالتها. ماذا مع ذلك ـ ماذا مع كل شيء آخر!» ألقت مديرة المنزل يديها مع لعنة إسبانية، وكان واضحاً من الطريقة التي تحدثت بها عن أعضاء هذه العائلة أنها كانت جزءاً من المنزل لسنوات عديدة.

«الحياة يمكن أن تكون جائرة إلى البعض»، هي تمتمت. «أحياناً لأولئك الذين يستحقون الأقل منها».

«أنا أعلم»، قالت دستين، من قلبها. لقد كان مات فقط في السادسة والعشرين عندما صدمته تلك السيارة الكبيرة وقذفت به عبر زجاج سيارته، في كوابيسها هي ما زالت ترى من أحبت يتحول من رجل حي إلى ميت ولا شكل لوجهه، هي ارتجفت، ومن ثم مدت يدها لتمسك بقبضة باب الحمام.

«هل سيكون على ما يرام إذا تناولت فطوري في غرفتي، اليوم فقط؟» هي سألت.

فيكتوريا هزت كتفيها. «حسناً جداً»، هي قالت. «إذن أنت ترغبين الشاي، واللحم والبيض؟».

«من فضلك».

«إنه سيكون جاهزاً في نصف ساعة». في الحال لمست مديرة المنزل ذراع دستين. «لقد قيل لي بأنك أرملة؟».

«نعم». أصابع دستين ضغطت على قبضة الباب حتى شحبت مفاصل أصابعها. «لقد توفي زوجي منذ سنتين».

«أنت صغيرة لكي تكوني أرملة»، قالت فيكتوريا، ومع جلجلة المفاتيح انطلقت على طول الرواق في اتجاه السلم. دخلت دستين الحمام القديم الطراز لكنه مريح، وأدركت أنها ربطت نفسها لمدة أسبوع على الأقل في هذا المنزل. هي لم تكن تريد البقاء، لكن شيئاً ما حجزها هنا؛ الفضول، ربما، لأن ذلك بكل تأكيد لم يكن عطفاً. كيف تستطيع أن تشعر بأي شيء عدا الكراهية لأي عضو في عائلة مانوليتو؟ دمه كان دمهم. وخطاياه قد تكون أيضاً خطاياهم. بحكم الفطرة هي عرفت أنه يتوجب عليها أن ترحل، لكن عندما انحنت فوق الحمام لتفتح حنفية المياه الساخنة هي تجمدت وكانت لا تدرك شيئاً سوى عنكبوت ضخم طويل الأرجل يجثم عند قاع الحوض، أسود مثل خطيئة على البورسلين الأبيض.

دستين عادة لا تكون خائفة من كل ما يحبو ويزحف، لكونها عملت في المستشفيات لفترة طويلة جداً وأعصابها لم تهتز بمثل هذه الأشياء، لكن منذ الليلة الماضية كانت أعصابها على حافة سكين وقبل أن تستطيع إيقاف نفسها هي أطلقت صرخة.

في الحال تقريباً فتح الباب خلفها وعندما التفتت لتنظر وجدت نفسها تواجه شخصاً طويلاً مع شعر مبلول بالماء، وصدر أسمر عاري، وبقية الجسم مغطاة ببنطلون أسود ضيق، للحظة كانت نظرتها مثبتة على قرص ذهبي يلمع على بشرته النحاسية، السلسلة التي يتدلى منها كانت مدفونة في كتلة من الشعر الأسود الذي يرتفع حتى حلقه تقريباً. البشرة المتوترة عبر

كتفيه لها ذلك الشكل المحروق للجسم الذي لم يخرج لفترة طويلة من تحت الدوش البارد، ولسبب ما انحبست أنفاس دستين في حلقها.

هي كانت ممرضة، وأرملة، لكنها لم تكن من قبل مدركة هكذا للحيوية لجسم رجل قوي. هي شاهدت تماوج العضلات تحت البشرة المتوترة كأن صاحبها لتوه دخل إلى الحمام.

«ما الأمر؟» هو سأل. «لماذا صرخت؟».

هي تذكرت العنكبوت وشعرت فجأة بأنها حمقاء كتلميذة. هي أومأت باتجاه قاع الحوض، لأنه لم يكن هناك شيء آخر تستطيع القيام به.

نظرته تتبعت اتجاه أصابعها، وهي لم تجرؤ على مقابلة عينيه عندما دارتا إلى وجهها. «وهل هذا هو سبب صراخك؟» كانت نغمة صوته ساخرة تماماً. «أنا اعتقدت أن حية على الأقل قد زحفت إلى الداخل».

«الشيء أخذني على حين غرة، هذا كل ما في الأمر. أنا لست عادة حمقاء هيستيرية، ويتوجب عليك أن تعترف أنه أكبر من النوع الموجود في إنكلترا».

«ربما»، هو تشدق، وانحنى فوق الحمام ورفع العنكبوت إلى راحة يده وحمله إلى النافذة. هو رماه إلى الخارج، ومن ثم التفت لينظر بثبات إلى دستين. هي نظرت إليه وكبتت رعشة سرت في أوصالها عندما رأت الشمس تنعكس على وجهه. إنها لم تكن ندبته وحدها التي جعلتها تشعر بميل للصراخ ثانية ـ لقد

كانت تلك النظرة التي لديه هي لمانوليتو دي أوبريغون. طويل كما كان هو، لين كالفولاذ الناعم، أسود العينين تقريباً؛ عينان يستطيع فيهما الليل أن يفقد نفسه.

«أنا فهمت أنك رأيت المركيزة»، هو قال، وصوته له حافة مفاجئة. «هي طلبت منك البقاء، أليس كذلك؟».

«نعم». كان على دستين أن تنظر بعيداً عنه، وفي الحال، في خطوة واحدة، هو عبر الحمام وهي شهقت عندما أمسك ذقنها بأصابعه وأرغم وجهها إلى فوق، بحيث كان عليها أن تنظر إليه سواء شاءت أم أبت.

«إذا بقيت، أيتها الممرضة شارد، فسوف تشاهدين وجهي كل يوم. إنه يجعلك ترتجفين، أليس كذلك؟ يجعلك تريدين أن تلتفتي بعيداً؟ حسناً، الخيار هو لك ـ أنا أستطيع نقلك إلى المحطة الآن وأنت لن تكوني بحاجة إلى رؤيتي ثانية. الليلة الماضية أنت توسلت لي لأقوم بذلك».

«أنا أعلم»، هي قالت. «أنا أريد الرحيل ومع ذلك ـ مع ذلك أشعر بأنه يتوجب علي البقاء، لفترة. إنه ليس فقط لأن لدي مهمة كممرضة بل...».

«بل لأنك فضولية حول العائلة التي تبدو بأن لديها ارتباطاً مباشراً على تعاستك الخاصة. أنت تريدين الجواب لماذا كان على زوجك أن يموت، وأنت تعتقدين أنك قد تجدينه هنا. هل أنا على حق؟».

«ربما». هي رفرفت رموشها في محاولة لتجنب عينيه؛ هي

لم تشاهد في حياتها عينين سوداوين نفاذتين هكذا، بحيث أن نظرت إليهما هي تكون أشبه بمن فقدت نفسها. «أنا لست أدري ـ إن الأمر كله قد اختلط علي، وإذا هربت فقد أكره نفسي كجبانة».

«بدلاً من ذلك أنت تريدين البقاء لكي تكرهينني؟» كانت هناك نغمة جافة في صوته، وأصابعه اشتدت قليلاً على ذقنها بحيث كانت نظرتها مركزة على وجهه. «ألق نظرة جيدة علي في النهار، أيتها الممرضة شارد. الليلة الماضية أنت قلت شيئاً غريباً، أنني كنت مانوليتو بعثت حياً لك ـ قد يكون ذلك صحيحاً، لأنه عندما حملوه من تلك الحلبة للثيران في إشبيلية كان وجهه الوسيم مشقوقاً لو أنه عاش ـ لكنه لم يعش. هو دفع ثمنه، كما يتوجب علينا جميعاً. ارحلي، أيتها الممرضة! ارحلي إلى إنكلترا وحاولي النسيان...».

«النسيان!» هي نظرت إليه بعينين زرقاوين ملتهبتين. «أنت لن تستطيع أن تحب أي شخص، إذا كنت تعتقد أن الأمر بهذه السهولة لكي أنسى ـ ابتسامة، طريقة التحدث معاً، إحساس بالامتلاك. ماذا أنت؟ رجل من حديد؟».

«إذن عليك البقاء!» قال بخشونة وأطلق سراحها بسرعة بحيث فقدت توازنها وسقطت على الحائط وضربت كتفها. هي جفلت، لكن وجهه بقي حاقداً. «هناك مثل، يا سينيورة، هو أنك إذا اخترت الإقامة مع التنين فعندئذ يتوجب عليك أن تعدي نفسك للاحتراق، أنا سوف أراك لاحقاً، بدون شك».

هو سار إلى الباب ومع ميل قصير من رأسه الأسود هو ذهب، تاركاً دستين لتعالج كتفها. كل الكراهية التي تراكمت في قلبها في السنتين الماضيتين كانت موجهة الآن إليه؛ كان من الواجب أن تجد منفذاً وهي الآن قد وجدته. عيناها اشتعلتا مع كل تلك الكراهية... وهي لم يكن لديها شك بأن هذا الابن العم لمانوليتو دي أوبريغون كان نفس النوع المتغطرس، يسير بطريقته الخاصة بدون اكتراث لأي شخص في طريقه. متأكدة هكذا من فوق جسمه... واثقة هكذا أن قلبه لا يمكن أن يلمس.

مالت دستين إلى المرآة التي كانت متصلة إلى جدار الحمام وحدقت لفترة طويلة إلى وجهها. مع إحساس غريب بالانفصال هي شاهدت ثانية ما شاهده مات عندما كان حياً، العينان اللتان كانتا زرقاوتين حقيقيتين بدون لمحة من الرمادي أو الأخضر فيهما. الشعر الذي كان أشبه بالذهبي الفضي، بروز البشرة الناعمة والملامح الدقيقة لوجهها.

بذلك الوجه، وذلك الجسم النحيل، هي سترغب في معاقبة ابن العم المتغطرس الذي كان شبيهاً إلى مانوليتو دي أوبريغون. مثل هؤلاء الرجال يعتقدون أنفسهم محصنين ضد مشاعر الحب. هم يفكرون به كعاطفة للحمقى الضعفاء... كيف يمكنها أن تثبت أن الغطرسة يمكن أن تركع على ركبتيها بواسطة من يهزأون بها.

النسيان! هو قالها كأنه يقول شيئاً عادياً، النسيان بأن مات

قتل في يوم زفافهما، وكل آماله ورغباته انتهت في لحظة، وحتى عندما أشرقت الشمس وجرس صغير من الزينة سقط من كم دستين عندما ركضت لتنضم إليه، متمسكة بمحفظة اليد التي للحظة مصيرية في وقت أخذها بعيداً عنه.

عينا دستين اللتين انعكستا في المرآة كانتا قاسيتين كالدرر في تلك اللحظة. هي تود في تعليم دون سيكاتريس كيف يكون الشعور بحب شخص ما، ومن ثم يفقده. هي ترغب في أن تأخذ قلبه، وتحطمه.

عندما عادت إلى غرفتها بعد حمامها هي وجدت أن صينية من اللحم والبيض، وإبريق شاي، قد وضعوا على طاولة الشرفة. النوافذ ذات الأطوال الأربعة كانت مفتوحة وأشعة الشمس تدفقت فوق النماذج الشرقية من السجاد. السرير تم ترتيبه، وحقيبتها وقفت على مقعد تنتظر تفريغها.

حسناً، هي لا تستطيع أن تقضي اليوم بالطقم المجعد الذي نامت فيه... ثانية هي نظرت إلى السرير وتعجبت لماذا لم تتذكر كيف غادرت الكرسي الليلة الماضية لتتسلق على السرير كل كان ممكناً أنها وضعت هناك؟ هل تلك الذراعين النحاسيتين القويتين لدون سيكاتريس رفعتاها وحملتاها إلى السرير بينما كانت هي غارقة في النوم؟

هو لن يجد وزنها مشكلة، وبما أنه كان معقداً كجهنم فهي لا تشك لحظة واحدة. إنها لن تكون عاطفة الشفقة هي التي حفزت أي من أعماله؛ إذاً هو جاء إلى هذه الغرفة الليلة

الماضية وشاهدها نائمة في الكرسي هو فكر بأنه شيء معقول بأن يضعها على السرير. يا إلهي، كيف يتنقل بصمت، كم كانت حركاته ماهرة إذاً هو استطاع حملها من الكرسي إلى السرير وبدون أن يزعجها. هل هو، في سخريته، فكر أنه لو أيقظها فهي قد تخاف من وجهه؟

فتحت دستين حقيبتها وبدأت تفتش عن ثياب جديدة. نعم، هي لديها خيار، هي تستطيع البقاء أو تستطيع الرحيل. «هل هم يتوقعون مني أن أرتدي زياً؟» هي سألت عرابتها. ابتسمت الكونديسا وهزت رأسها. «هؤلاء الناس ليسوا تقليديين»، هي أجابت. «أنت ستفاجئين بهم».

تفاجأ قلما كانت الكلمة المناسبة. نفضت دستين ثوبها الأزرق الداكن المشذب بالأبيض، من القماش الذي لا يتجعد، وبعد عدة دقائق هي كانت قد ارتدته ومشطت شعرها إلى غرة ناعمة التي تركت الخط لصدغيها، وفكها والحلق يبدو واضحاً وغير صاخب، ومع ذلك ليس قاسياً.

هي تناولت فطورها في ضوء الشمس، وكانت قد أوشكت على الانتهاء من اليوسفي عندما جاءت خادمة شابة لتأخذ الصينية. كان واضحاً أن الفتاة قد أخبرت بأن الممرضة الإنكليزية تتكلم الإسبانية جيداً، لأنها لم تقم بمحاولة لتتحدث بأية كلمة إنكليزية وأخبرت دستين بفيض سريع من الكلمات بأن المركيزة تود رؤيتها إذا كانت هي مستعدة تماماً الآن، بحيث أنها تستطيع مقابلة السينيورة كوسيما.

دستين لحقت بالفتاة، الأعصاب مشدودة للمواجهة الأولى مع المرأة الشابة التي ليست لديها أية فكرة بأن شقيقها قد تسبب بكثير من الخراب لحياة دستين مثلما سببه الشلل لحياتها. هما نزلتا مجموعة من الدرجات الملتوية إلى قاعة مقنطرة، من حيث المعتكف الأبيض البارد ظهر فجأة شخص طويل في طريقهما.

«اذهبي على طول إلى المطبخ، يا بابيتا»، هو قال. «أنا أود التحدث قليلاً مع الممرضة، ومن ثم سآخذها إلى تيا فيليسيتا».

ألقت الفتاة نظرة خائفة نوعاً ما إليه، لاحظت دستين، ومن ثم بإطراقة واندفاع هي ذهبت، وهو أعطاها ضحكة قصيرة ساخرة.

«في كل مرة نحن نروض خادمة جديدة ـ هؤلاء الفتيات يتزوجن بأسرع ما يمكنهن ـ هي تجلب معها الكثير من الخرافات المتعلقة بي. هل تعلمين أنه عندما سقط إبليس من النعمة وتدحرج من السماء، هو ضرب وجهه ومنذ ذلك الحين حمل علامة؟ حسناً، إنها واحدة من الخيوط الملونة العديدة التي يحيكها أهل الريف، والفتيات هن فتيات ـ أليس كذلك، أيتها الممرضة شارد؟».

عندما هو تكلم هو استرخى على أحد الأعمدة التي تدعم القنطرة، وكان هناك شيء ما مزعج حوله أكثر مما اكترثت تبدو سمراء عربية، وتلك النظرة للقوة الكسولة كانت أكثر فجوراً في النهار مما كانت في الظلام. هو ارتدى الليل كقناع، لكنها رأته

الآن مكشوفاً كرجل في ثلاثيناته الأولى، بدون لمحة من عاطفة أو رقة في ذلك الوجه الشيطاني المشوه.

«ماذا تريد، أيها السينيور؟» هي سألت. «أنا لا أريد إبقاء عمتك منتظرة».

«كل ما أريده هو تأكيدك بأنك لن تقولي أشياء تزعج تيا فيليسيتا، إذا كنت باقية هنا، إذن يجب أن تعديني بأنك لن تقولي شيئاً حول أن زوجك مات بسبب مانوليتو، ذلك سيكون قاسياً جداً للمرأة التي عانت. . .».

«ألا تعتقد بأنني قد عانيت؟» سألت دستين بهدوء.

«أنت شابة»، هو قال، وعيناه كانتا لا ترحمان عندما استوعبتا قوامها النحيل في ثوبها الأزرق الداكن المنفوخ بالأبيض حول القبة، والانتفاخ الممتد أسفل واجهة الثوب إلى الحاشية. «وأنا واثق أنك تعلمين بأنك جذابة، وحياتك يمكن أن تبدأ من جديد. لكن المركيزة يجب أن تعيش على ذكرياتها، والحزن قد لينها وأنا لا أريدها أن تصبح قاسية لها. إذا آذيت تلك المرأة بأية طريقة. . .» هو أخذ خطوة باتجاهها ودستين تراجعت بصورة آلية عنه، عندما رأت شفتيه تلتويان عندما هو اعتبر تقهقرها كردة فعل أنثوية عادية لندبته. «أعتقد أنك أنت وأنا قد فهمنا بعضنا، أليس كذلك؟».

لقد كان دورها لكي تنظر إليه من فوق إلى تحت، وهي فعلت ذلك عمداً. «أنت حكمت علي، يا سينيور، والآن أنا سأحكم عليك. أنت اعتبرتني أرملة أتطلع إلى حامٍ ثري ـ فهل

يفترض أن أخطئك كحامي ثري؟».

«إنها قد تكون غلطة إذا اعتبرتني أحمقاً عادياً من المحتمل أن يكون مبهوراً بشعرك وعينيك الزرقاوين»، هو تشدق.

«لماذا يتوجب علي أن أبهرك؟» هي سألت، «أنا يجب أتخيل ذلك بأنه سيكون أشبه بضرب عود ثقاب على قطعة من فولاذ».

«طالما أنك تعرفين»، هو قال، إلتواء على شفتيه، «أنا يجب أن لا أتمنى لك أن تظلي تحت الوهم ان بإمكانك أن تجعلي العينين الزرقاوين علي وتخيلي أنني ساعتبر ذلك لأي شيء أكثر من كراهية، أو شفقة».

هي حدقت إليه، وشعرت بطعنة غريبة في القلب. «أنا لا أستطيع أن أتخيل شعور أية امرأة بالشفقة نحوك، يا سينيور»، هي قالت. «الفكرة هي خيالية!».

«هل هي خيالية أن يتوجب على أية امرأة أن تحبني؟» هو استعلم، ومرة أخرى تقدم خطوة في اتجاهها، وهذه المرة، قبل أن تعرف، هي تراجعت إلى زاوية إحدى القناطر، الإنحناءات عند كل جانب منها، وهو أمامها، طويل، ساخر، وغير مبال لشعور أي شخص نحوه، سواء أكان كراهية أم حباً.

«النساء لا يخلعن بواسطة الندوب»، هي قالت، ونظرت إليه والتحدي في عينيها الزرقاوين الصافيتين. «إنهن فقط بشدة عميقة... إنها ما في داخل الرجل الذي يهتم. أنت تبالغ بكل انفعال على وجهك... أنت تستعمله كسلاح لإبقاء الناس في

موقف حرج. أن لا تحب الناس، أليس كذلك؟».

«هل أنت مدربة لتمريض العقل كتمريض الجسم؟» هو سأل بجفاء. «أنت تزعمين بأنك تعرفين الكثير عني خلال مثل هذا التعارف القصير».

«أنت تزعم نفس الشيء»، هي أجابت.

«لماذا؟» عيناه السوداوان حلقتا فوق شعرها واستقرتا على الخط الفضي الذي يسري خلاله، «هل الإبرة ما زالت توخز لأنني قلت بأن شعرك مصبوغ؟ لأجل ذلك أنا أعتذر، لكن بعد رؤية العديد من الشقراوات اللواتي يستعملن أوكسيد الأوكسجين على شواطىء إسبانيا فأنا أزعم أن الشقراء الحقيقية ستكون نادرة مثل الابتسامة على وجه الموناليزا».

«إنهن لسن النساء الإنكليزيات فقط اللواتي يشبهن الإسبانيات على الشواطىء، يا سينيور»، هي قالت بصلابة.

«ربما لا»، هو هز كتفيه كأن لديه القليل من الوقت ليدخره لأي من النساء الأوروبيات اللواتي جئن إلى إسبانيا في الصيف لتسمير أجسامهن. «أنا في الواقع لا أستطيع أن أكترث أقل، ما عدا قول أن العديدات منهن منظرهن يؤذي العين مع مايوهاتهن الشحيحة فوق أوراكهن. لكن هذا بجانب الموضوع... أنا يجب أن أتأكد من وعدك بأنك ستكونين ذكية حول الدور الذي لعبه ابن عمي في حياتك. إذا لم أستطع الحصول على الوعد، إذن يتوجب عليك أن ترحلي، أيتها الممرضة شارد».

«أنت تتكلم كأن لديك السلطة لكي تطردني»، هي قالت.

«بكل تأكيد هذا هو منزل المركيزة؟».

«نعم، لكنني المسؤول عن إدارته».

«رئيس طهاة وغاسل القناني»، لم تستطع دستين إلا أن تقول. «الدون الذي يفرقع بالسوط».

«بالضبط»، هو تشدق. «مرة أخرى نحن نفهم بعضنا. عمتي لديها ما يكفي لكي تهتم به بدون أن تقلق للأشياء الطفيفة، مثل توظيف الملاك. كما قلت لك الليلة الماضية، أنا ضد استئجار ممرضة إنكليزية، لكنه صحيح أن كوسيما لم تظهر الكثير من التحسن على أيدي الممرضات اللواتي حضرن إليها لغاية الآن. هذا كله في الذهن، بالطبع. هي تعيسة بشكل لا يطاق وهو يؤثر على حالتها البدنية. إذا كان باستطاعتك القيام بأي شيء لمساعدة كوسيما، عندئذ إنها ستكون معجزة صغيرة. يمكنك أن تحاولي، أيتها الممرضة شارد، إذا أعطيتني ذلك الوعد».

«هل أنت في الواقع تتخيل، يا سينيور، أنني سأندفع إلى حضرة عمتك، أصرخ بأن ابنها قتل زوجي؟» وقفت دستين هناك ضد الحجر الأبيض، متحدية له، ومع ذلك كانت عصبية بغرابة للقوة الرشيقة الطائشة لجسمه، والاحتقار الساخر الذي بدا لديه للنساء اللواتي لسن لاتينيات. هي كانت قد سمعت عن الطريقة التي بها النساء الأوروبيات يبعن أنفسهن بثمن زهيد للإسبان، غير مدركات تقريباً أن الاندفاع المغربي في هؤلاء الرجال جعل التباهي الفج للجسم إشارة تقريباً أن أية امرأة تقوم بذلك هو أفضل قليلاً من المرأة التي تبيع نفسها.

اللون لسع خديها... كان هناك شيء ما حولها، كبرياء قاس واكتفاء ذاتي اللذين جعلاها تشعر بأنها رخيصة لتفكيرها أنها تستطيع استخدام نظراتها لكي تستغفله. عيناها كشفتا تلك الندبة المخيفة التي ابتلي بها عندما كان مراهقاً.

«امرأة خرجت في سبيل الانتقام هي خطيرة كامرأة ساحرة»، هو قال. «الليلة الماضية أنت لم تستطيعي الانتظار لكي تغادري القلعة. هذا الصباح أنت تقررين البقاء. إنه قلما يكون غير طبيعي أن أعجب حول تغيير رأيك. ما الذي يدور في ذهنك، أيتها الممرضة شارد؟ شكل ما من الانتقام ضد عائلة مانوليتو؟».

«لا!» لكنها قالتها بحدة بالغة، وبتحدٍ بالغ، وفي الحال عيناها ضاقتا حتى أصبحت لديهما نظرة متلألئة قاسية. امتدت يده وأطبقت على كتفها، وهي شعرت بضغط أصابعه عبر جسمها كله.

«لا»، قالت ثانية. «أي شيء تقترح ـ أنا لست كذلك!».

«ألست كذلك؟» هو حدق في عينيها. «أنت امرأة، والأحمق فقط هو الذي يزعم بأنه يعرف كل ما يدور في خلد المرأة. إنه يلتوي ويدور كالحية نفسها في حديقة، وقد كانت تلك الطريقة منذ أن وقع آدم ضحية مكائد أنثى. كوني حذرة، أيتها الممرضة. أنا لك بالمرصاد، وأنا لن أتردد في تحطيم عنقك الأبيض إذا قمت بأي شيء يؤذي المركيزة. هي لديها نصيبها من الألم، وهي تعني لي أكثر من مخلوقة زنبقة بيضاء مثلك ـ

أنت أكثر قليلاً من فتاة، وأنت ليس لديك ذوق، بعد، للشهوة الحقيقية. أترين، أنت ترتجفين من الكلمة! كل شيء مسموح به من حيث جئت ـ كل شيء ما عدا الشهوة التي تنبع من العطاء الكلي. أنت تأخذين من اللحظة التي ولدت فيها، لكنك لن تعطي. مجتمعك هو مجتمع اكتسابي مصبوغ بالخبث. . . إذن ما الذي جعله محتملاً لك للبقاء هنا، أيتها السينيورة؟».

هي حدقت إليه ثانية ولم تستطع إيجاد الكلمات لتشرح بها. هل كان هو على حق. . . هل كان خبثاً حقيقياً هو الذي جعلها تريد البقاء مع هؤلاء الأشخاص الذين هم الأقرباء الأقرب إلى مانوليتو دي أويريغون؟

«حسناً، أيتها الممرضة؟» أصابعه انزلقت عمداً حول عنقها النحيل، وضغطوا على بشرتها بحيث شعرت بالرؤوس القاسية ليده، والدفء الذي بدا كأنه ينفذ إلى دمها. «هل لسانك فقد نفسه فجأة؟».

«هل أنت تعرف دائماً ما الذي يستحث أعمالك؟» هي سألته.

«هل أنت واثق من نفسك، يا سينيور؟».

«لا». هو هز رأسه وعيناه اللامعتان استقرتا على شفتيها، فقط تلون خفيف، انثنى على بشرتها الشاحبة. «هل أن تفقدي زوجك في يوم زفافك؟».

«نعم. . . .» هي ارتجفت للذكرى. . . عند لمسة ابن عم مانوليتو.

«إذن هل يمكن أن تجيبي إذا سألتك إذا كنت تحملين ضغينة نحونا؟» هو ما زال يتكلم بذلك الصوت الجائر. «الأمر لن يكون مدهشاً إذا كنت».

«ربما أنت تخشى السماح لي بالبقاء»، هي قالت.

«أخشى. . . على نفسي؟» هو أعطى ابتسامة تهكمية وعيناه مسحتا جسمها من فوق إلى تحت. «هل تخططين للقيام بدور دليلة؟ أنا قد أقول أنك قلما بنيت له».

«أنا. . . أنا يتوجب علي أن لا أرغب في إغرائك»، هي شهقت، منكرة ما خطر ببالها، ورأت في عينيه إدراكاً ساخراً جعلها تشعر بأنها عسراء وبدون فائدة، هي حاولت أن تتحرر منه، وبانعكاس كان حيوانياً في سرعته، ذراعه الأخرى التفت حولها وهو جلب لها قرباً مؤلماً إلى الدفء القاسي لجسمه؛ الجذع العاري والأسمر تحت القميص الأبيض، والساقان الطويلتان والعضليتان في البنطلون الأسود الذي يناسب بشرته.

عيناها الزرقاوان حارتا عينيه السوداوين. . . قوته كانت مطلقة، لكن دمتين لم تعرف حتى الآن أنها استطاعت أن تشعر بضعف مفجع بين ذراعي الرجل، ذلك لم يحدث من قبل وهي هلعت. «دعني أذهب!» وعندما التوت ابتسامة على فمه هي صفعته ويدها وجدت ندبته بدلاً من الابتسامة، وذلك هيجه.

«أنت لا تحبين وجهي، أليس كذلك؟» هو أنزله إليها. «إذن اكتشفي ما هو شكله عندما يكون وجهي بهذا القرب لك!».

هي شعرت بالاندفاع الدافيء لأنفاسه، ومن ثم شعرت

بالصدمة من شفتيه... هي لم تقبل لمدة سنتين، لكن هذه القبلة من إسباني غاضب لم تعد الذكريات لرقة مات. لقد كانت أشبه بلهب حارق عبر سنوات القحط... لسعت وحطمت الأشواق الرقيقة، وكل ما كانت دستين واعية له كان الجسم الخالي من الرحمة يقفل على جسمها، وفمه الذي لم يكترث كم كان يؤلمها.

إطلاق سراحها عندما جاء كان سريعاً بوحشية... هي حاولت تثبيت نفسها لكنها ترنحت إلى الإنحناء الصلبة للقنطرة. «أنت شيطان»، هي همست، «مثله تماماً!».

«هل تشيرين إلى مانوليتو؟» هو تأملها بانتباه، يداه في جيبي بنطلونه.

«نعم!» هي أرجعت رأسها وكرهته بعينيها. «تلك هي علامة الشيطان على وجهك، مع أنني لا أعتقد أنك كنت قريباً من السماء لكي تقذف منها!».

شفتاه التوتا عندما قالت ذلك. «كم أنت ذكية لكي تخمني»، هو قال. «أنت ستغادرين الآن، أليس كذلك؟ أنا سأذهب وأخبر إسكاميلو كي يخرج وسيلة النقل...».

«لا»، هي تدخلت. «أنا لن أهرب منك! ذلك هو ما تريده، أن تراني أهرب مثل أرنب خائف فقط لأنك... قبلتني. أنا باقية، سواء شئت أم أبيت!».

«أنا لا يعجبني ذلك»، قال عمداً، «لكن إذا كنت باقية، عندئذ أنصحك أن تنامي في السرير المجهز لك، وليس في

كرسي. هذه منطقة استوائية تقريباً، كما أخبرتك، والبعوض العادي يطير إلى الداخل... وأنت لن تستمتعي بعضته، شبكة السرير سوف تحمي بشرتك البيضاء المغرية!».

«هل كنت أنت...» دستين عضت على شفتها، بينما لون قليل التهب عبر خديها. «الليلة الماضية بدا ذلك السرير ضخماً ولديه تهدل غريب عليه. أنا... أنا لم أفكر حول الدخول المحتمل للبعوض».

«أو لرجل؟» هو تشدق. «إنه سيكون غريباً، أليس كذلك، لو أننا اضطررنا لمعالجتك من الحمى؟».

هي نظرت بسرعة بعيداً عن عينيه الساخرتين، وأمالت ذقنها لتدعه يعرف أنها لا تريد اهتمامه بأي مقدار، مع أنها لا تشك في أنه يستطيع تولي القيادة المتغطرسة لأي طارىء.

«ألا تريدين أن تشكريني على نقلك من الكرسي إلى الراحة الأكبر للسرير؟» هو سأل، وبدا ساخراً.

«شكراً»، هي قالت باختصار، وتمنت من السماء أن يكون ممكناً أن تنسى الشعور العاجز الذي اجتاحها خلال تلك اللحظات الواعية بين ذراعيه. الليلة الماضية هي لم تكن مدركة لتلك الذراعين مع عضلاتهما التي تتماوج كالفولاذ الناعم تحت البشرة الدافئة التي حولتها الشمس إلى نحاسية. «والآن هل تسمح بأن تأخذني إلى المركيزة، أيها السينيور؟».

«بكل الوسائل، أيتها الممرضة». هو سار بخطوته الصامتة عندما رافقها عبر القاعة، وأحناها داخل الصالة، وهي التقطت

الوميض الساحر في عينيه قبل لحظة من استدارته بعيداً وتركها واقفة هناك. هي كافحت كيلا تنظر إليه، لكنها لم تستطع مساعدة نفسها. هو كان طويلاً بشكل غير عادي كإسباني... رجل غير عادي في عدة نواحي، والذي قد يكنس معظم النساء كما لو كن بعوضاً قد أزعجه.

الفصل الثالث

تلك المواجهة مع دون سيكاتريس لم تساعد دستين على استجماع رباطة جأشها، وفي محاولة يائسة لاستعادة سيطرتها الذاتية هي ألقت نظرة سريعة حول الصالة ورأت على الفور أن لا شيء هنا قد استبدل بأدوات عصرية للرفاهية.

الصالة لديها ذلك الجو الرشيق الجميل لغرفة كان الأثاث فيها قديماً لكن معتنى به، يقف على سجاد معتم بواسطة السنين لكنه بدون بقع، ومظلل من الشمس الكاملة بواسطة ستائر طويلة لا تحمل ذرة من الغبار. هذه ليست عائلة للثروات

الجديدة، بل واحدة متأصلة لفترة طويلة حيث هذه المنطقة هي في الجنوب، حيث منذ سنوات طويلة حكمها المغاربة ووضعوا عليها بصماتهم.

عيناها استقرتا على لوحتين لغويا وضعتا جنباً إلى جنب على الحائط، واحدة لامرأة، والأخرى لمصارع ثيران.

«هل أنت مولعة باللوحات، أيتها الممرضة شارد؟» دخلت المركيزة بخفة عبر السجاد باتجاه دستين. «كان غويا سيدفنه، أليس كذلك؟».

«أنا اعتقدت أنهما يجب أن تكونا أصليتان». نظرت دستين عندئذ، إلى المرأة التي كانت بشكل لا يصدق والدة مانوليتو. هي ارتدت طقماً جميلاً من الكتان بلون عاجي، كان شعرها أبيض براقاً ومرتباً بالكامل، وفضول محدد استقر في عينيها عندما هي درست الممرضة الجديدة لابنتها.

«أنت امرأة شابة أنيقة جداً»، هي قالت، «وأني لأعجب لماذا تركت لندن لكي تأتي إلى هنا. إذا كنت ممرضة صريحة وذات كفاءة فعندئذ أنا قد أكون أقل حشرية. لكنك نوعاً ما تبدين أنثوية جداً لتكوني كاملة العقل ـ متحررة، أليس هذا هو ما يقولونه؟ الكونديسا دي كالفا في رسالتها أخافت أنه ليس لديك دائرة خاصة من الأصدقاء وتبقين كثيراً لنفسك وتكرسين وقتك لعملك. أنا لذلك توقعت شخصاً ما ـ حسناً، أقل جاذبية وأناقة بكثير».

«أنا آسفة إذا كانت عرابتي قد ضللتك، سينيورة مركيزة»،

تكلمت دستين بأدب، وفكرت لنفسها أنها كانت هي الواحدة التي ضللت. «منذ أن فقدت زوجي ينقصني الاهتمام بأي شيء عدا عملي، وأنا لا أنوي الزواج ثانية».

«إذا امرأة من سني قالت مثل هذا الشيء، عندئذ يكون مفهوماً ـ من فضلك اجلسي». وجهت المركيزة يدها باتجاه إحدى الصوفات السمراء المذهبة. «هذه ليست مقابلة، بل حديثاً ودياً بين شخصين لديهما العناية المشتركة بابنتي. أنا لا أرغب في تمثيل دور ربة عمل وأنا آمل، أيتها الممرضة، أنك لا ترغبين في أن تكوني مجرد مشرفة ذات كفاءة لراحة كوسيما؟ هل أنت؟ رغبتي الرئيسية عندما قررت الأخذ بنصيحة الكونديسا وتوظيف ممرضة إنكليزية كانت أنك قد تصبحين صديقة لكوسيما. أنت أرملة شابة وجميلة. أنت تعلمين كيف يكون الشعور عند فقد من تحبين. أنت لديك ذلك مشتركاً معها، وأنا آمل أنك قد تصبحين موضع ثقتها، لأنها بحاجة ماسة إلى واحدة، وهي قد تتعلم التحدث بمزيد من السهولة مع امرأة شابة من سنها. ماذا تقولين ـ يا دستين؟ ذلك هو اسمك الأول، أليس كذلك؟ غير عادي، اسم ذو مغزى تقريباً. إنه قد يكون القدر هو الذي رتب مجيئك إلينا».

جلست دستين بتوتر على حافة الصوفا، المواجهة للصوفا التوأم التي جلست عليها المركيزة. المرأة الأخرى ابتسمت ومالت إلى الأمام، واضعة بخفة يداً على ركبة دستين. «أنت لا تبدين مسترخية ـ ألا تشعرين بأنك ستكونين سعيدة معنا؟ هل

أنت الآن تشعرين بالندم لأنك تركت لندن للمجيء إلى إكساناس؟ لماذا فعلت عندما شعرت بأنك هكذا مرتابة مما قمت به؟».

«أنا.... أنا أشعر بحاجة للتغيير». جاهدت دستين لتكون على راحتها أكثر، لأنها أحبت المركيزة وشعرت أن دون سيكاتريس لا يمكن أن يكون مصيباً عندما قال أن الرغبة بحمل الضغينة كانت حافزها في البقاء هنا في القلعة. هو لا يمكن أن يكون مصيباً، هل يمكنه؟ كانت دستين مرتابة وقد ظهر ذلك.

«التغيير هو دائماً جيد، ولا شك أنك شعرت بكثير من الحزن بكونك ترملت وأنت هكذا شابة، يمكن أنه لم تكن لديك فرصة حقيقية لأية سعادة حقيقية...» تنهدت المركيزة ونظرت إلى الياقوتة الثقيلة والخاتم الماسي على يدها. «بطريقة ما، مع ذلك، أنا أستطيع أن أتمنى لو أن كوسيما ترملت بدلاً من أن تنفصل عن الرجل الذي بقيت تأمل بأن تكون معه ثانية. كيف تستطيع الاستمرار بحبه هو معجزة ـ لكن الحب هو معجزة، على ما أعتقد. إنه يأتي مثل ضربة سهم حاد، يجلب الألم أو المتعة، أو كلاهما في نفس الوقت، من يستطيع في الواقع أن يتسلح ضده، وكوسيما كانت دائماً فتاة سريعة العطب، مما ضاعف السوء لها بأن تكون متألمة جسدياً بواسطة شلل الأطفال، ومتألمة عقلياً بإخلال زوجها بالواجب في وقت هي في أمس الحاجة إليه».

مالت المركيزة إلى الوراء في مقعدها وعيناها السوداوان

الجميلتان تحتضنان لوحة غويا لمصارع الثيران. «منذ سنة أنا فقدت ابني، يا دستين، لذا أنت ستفهمين أن كوسيما غالية ضعفين بالنسبة لي. أنا أقول لك بصراحة أنني كنت دائماً آمل بأن تتزوج من ابن عمها، لكن الفتيات الشابات يترنحن بالوجه الوسيم وعندما هذا الرجل الآخر دخل إلى حياتها وأنا كانت لدي شكوكي حوله، لكنني اقتنعت بلهفتها له بأنها ستكون سعيدة. أنا كان يجب أن أكون قاسية. أنا كان يجب أن أحرمه منها، لأنها كانت صغيرة بالنسبة إلى سنها، وكانت لدي بعض السيطرة عليها، بكوني الأم والأب لها طوال تلك السنين ـ أنت قد لا تعرفين ذلك، لكن زوجي قتل في إيسترامادورا حيث كان لديه مرة إسطبل كبير حيث تربى الخيول. الطفلان كلاهما كان هناك، ابني مع ابن عمه، كلاهما بنفس السن، لقد كانت مأساة كبيرة! كان هناك حريق في الإسطبلات ـ أنا اعتقدت بأنني يجب أن أفقد عقلي، وقد كانت فقط العناية الفائقة التي أعطيت لأرتيز ـ في تلك الأيام هو كان دائماً آرتيز وفقط لاحقاً نحن تعودنا على الإشارة إليه باسم دون سيكاتريس، وبطريقة غريبة الاسم ناسبه تماماً! هو أصيب إصابة بالغة، والاعتناء به وفر سلامة عقلي، لأنني أعلم معنى فقدان الزوج المحب».

استمعت دستين إلى كل هذا بطريقة مذهلة. لقد بدا رهيباً التفكير بهذه المرأة الرشيقة ممزقة القلب والعقل بمثل هذه النهاية الرهيبة لزوجها. هي بدت هكذا هادئة، هكذا معصومة من الذنوب، وهكذا مسيطرة على انفعالاتها ـ هل هي صرخت،

كما فعلت دستين؟ هل هي صرخت مجرم؟

«هل كان حادثاً؟» هي سألت بهدوء.

«نحن في الواقع لم نعرف ـ لقد زعم هكذا. سيجارة ملقاة، ربما، أشعلت القش على الأرض في الإسطبلات. لكن ذلك كان كيف أن ابن شقيقي جاء بندبته، لأنك ملزمة بأن تكوني فضولية حوله، وهو تقريباً ملزم بأن لا يرضى ذرة من فضولك. هناك خط من حديد فيه، إن لم يكن حديداً».

مع ذلك، فكرت دستين، هو سيكون مقبولاً كزوج لكوسيما. هل من الممكن أن يكون قد أحبها؟ هي حاولت أن تتخيله في حب مع امرأة واستطاعت فقط أن تتصور الرجل الذي قد يشعر برغبة جامحة لكن أبداً لأي من العواطف الأرق. ربما منذ فترة طويلة هي جفت منه عند فترة الحريق، وكوسيما عرفت هذا وسحبت من قدميها بواسطة شخص ما له سحر والكذب على شفتيه. لم تفكر دستين أن دون سيكاتريس سيخدع بكذبة؛ هو دائماً سيكون صريحاً بألم حول مشاعره، كما كان الليلة الماضية، وهذا الصباح، عندما هو أخبرها بأنه لا يريدها هنا. إنه ليس فقط لأنها كانت تهديداً لسلامة عقل عمته، فقد تكون هي تهديداً لسلامة عقله.

بدا دستين أمسكتا بعضهما. . . هي كانت شابة، هي كانت امرأة، وليس هناك من شك بتاتاً في عقلها بأن دون سيكاتريس كان رجلاً، مع تلك الرجولة الأكيدة الصلبة التي تجعل الإسبانيين يبدون أكثر رجولة من الرجال الآخرين. هم ليست

لديهم غلاظة الوجه والجسم التي لدى الرجال الأوروبيين في ثلاثيناتهم؛ أجسامهم تبقى لينة ورشيقة، وملامحهم لديها امتياز إيل غريكو. الأمجاد والحماقات الوحشية لإسبانيا تجري في عروقهم، وهي ظاهرة.

«أنت تبدين»، قالت المركيزة، مع لمسة خفيفة من الدعابة، «بأنك تكنين كرهاً لابن شقيقي. هو رجل لا يقبل التسوية والذي لا يضيع كلمات على الإطراء ـ في ذلك هو لاتيني غير نموذجي، ويعود ذلك إلى حقيقة أن جدته كانت من أوستراليا، من كل الأماكن. التقاها زوجها عندما كان يقوم بجولة حول العالم؛ هي كانت امرأة ملفتة للنظر كانت تدير نوعاً من فندق في براري تلك البلاد الشاسعة. امرأة طويلة، واسعة العينين، ذات شخصية قوية التي مررتها إلى آرتيز».

«أنا فهمت»، كانت دستين متحايلة رغم أنفها. «إذن ذلك يحسب لطوله. الإسبانيون لديهم بنية جميلة لكنهم ليسوا دائماً طوالاً مثل ابن شقيقك ـ مع ذلك، رغم ذلك الدفع للدم الأوسترالي، هو يبدو ليكره النساء من نوعي. هو يعتقد أننا مصبوغات ومتدهورات خلقياً».

انفجرت المركيزة في ابتسامة. «منذ فترة طويلة، قبل أن تبدأ النساء في أوروبا بالإغارة على منتجعاتنا الساحلية، اللاتينيون كانت لديهم نظرية مثالية عن الشماليات الشقراوات. أنا أخشى أن ذلك المثال قد سقط عن قاعدته منذ قدوم البكيني، والجوع إلى الرومانسية اللذين نساء عديدات من أوروبا جلبتهما إلى

إسبانيا. هل الرومانسية والحشمة هجرتا بلدكم وجعلتا رجالنا يأخذون فكرة أن النساء الأوروبيات هن من فضيلة سهلة؟».

ابتسمت دستين بكآبة. «إنها مرحلة نمر بها، على ما أعتقد ردة فعل ضد المبدأ المزدوج الذي يحكم بأن الرجال قد يزرعون شوفانهم البري لكن ليس النساء. أنا لاحظت في مدريد أن الكثير من الفتيات يرتدين الأزياء الأوروبية وقد أخبرتني عرابتي أن الشباب الآن يتواعدون مع الفتيات بدون أن يطلبوا دائماً الإذن من آبائهن. إنه يبدو أن الأفكار العصرية أخذت تنتشر».

«آه نعم، في مدريد». تكلمت المركيزة بجفاء. «لكن هنا هو الجنوب، دستين، وهنا الطرق القديمة لا تزال سارية. النساء الشابات للجنوب ما زال عليهن أن يكن حذرات حيال سمعتهن، وإلا فإنها لن تجد شاباً لكي يتزوجها. طرق المعاشرة القديمة ما زالت سائدة هنا في إكساناس، والأبوان ما زالا يتخذان يداً حازمة في اختيار الزوج للابنة، خاصة إذا كانت جميلة ولديها مهراً. أنت قد تجديننا من الطراز القديم جداً في هذه البقعة من العالم، إذا كنت شابة متحررة جداً هل أنت؟».

هزت دستين رأسها. «المزيد من الحرية يجعل النساء يظهرن خاليات من الكياسة، وذلك يجعل الرجال سيئي السلوك. أنا أقدر الكياسة اللاتينية ودائماً وجدت الكونديسا دي كاالفا جميلة السلوك. أعتقد أن معظم الإسبانيين يحتفظون بتلك المهابة التي تبدو ساحرة للأوروبيين. أنا أعتقد أنه حتى الفتيات المتحررات

يفضلن الرجل اللطيف على الفظ، ولهذا السبب هن يتدفقن على الشواطىء الإسبانية. حتى الخدم الإسبانيين هم فاخري السلوك».

«خصلة موروثة»، قالت المركيزة، وبدت مفكرة. «تماماً مثلما قسوتنا موروثة. نحن يمكن أن نكون قساة، أنت تعلمين يا دستين، زوج كوسيما كان قاسياً عليها، وابني...» هي توقفت مع تنهيد. «على أي حال، أعتقد أننا الآن قد فهمنا بعضنا بصورة أفضل قليلاً. أنا أريدك أن تكوني صديقة لابنتي - إذا استطعت».

«أنا بكل تأكيد سأحاول، سينيورة مركيزة».

«أنا أحذرك بأن الأمر لن يكون سهلاً، يا دستين. مرضها والتعاسة على ذلك الرجل الذي تزوجته تركا بصماتهما على شخصية كوسيما. عندما كانت فتاة أي شخص استطاع أن يحبها، وإلا فإنها تعود إلى نوبات من الوساوس المخيفة. ابن شقيقي يتعامل معها بحزم...».

«أنا أستطيع أن أتخيل»، لم تستطع دستين إلا أن تقول.

«لا تفهميني خطأ». بدت المركيزة قاسية للحظة. «هو لا يلجأ إلى الشراسة، لأنه مغرم بها. لكن لديه طريقة محددة معها وكوسيما تستمع إليه».

«هو ضد فكرة ممرضة إنكليزية...» دستين عضت على شفتها؛ هو كان ضدها لأكثر من سبب، لكن لكل ذلك بعض التجاوب البدائي تحفز بينهما. كراهيتهما المتبادلة وضعت شعلة

لنوع ديناميكي من الإدراك؛ هو لم يعجب بمظهرها المصري الشمالي، ليس أكثر مما أحبت هي غطرسته العالية وشخصيته، لكنه قبلها وهي لا تزال مدركة لـه بفزع. وجهه لن يخيفها، لكن لمسته لديها قوة ترعبها. هو أزعجها كما لم يزعجها أحد لفترة طويلة. . . هو لمسها وما كان مخدراً فيها أخذ ينمل فجأة بالحياة والألم.

«آمل أن لا يتدخل. . .» كان صوتها حاداً. «كممرضة لابنتك، آمل أن لا أكون تحت سلطة بأية طريقة؟ أنا. . . أنا لا أعتقد أنني أستطيع الوقوف لأجل ذلك، سينيورة مركيزة».

«بالطبع لا»، هي طمأنتها. «ابن شقيقي هو مشغول بالممتلكات معظم النهار، لكنه يحب ساعة مع كوسيما في المساء. أعتقد أنك إذا كنت ناجحة مع كوسيما، هو سيكون أكثر امتناناً. منذ حادثتها هما أصبحا متقاربين، وأعتقد أنها لو استطاعت أن تنسى ذلك الزوج وتوافق على الطلاق ـ حسناً، ذلك سيسعدني، ويناسبني، لأرى كوسيما في العناية الكاملة لآرتيز».

«لكن أليس الطلاق عملاً أخرقاً للشعب الإسباني؟» سألت دستين. «القوانين الكاثوليكية ما زالت صارمة جداً، أليس كذلك؟».

«الرجل الذي تزوجته هو من كاليفورنيا». بدت المركيزة مستهزئة. «يمكن ترتيب ذلك بدون مزيد من الإزعاج ـ هو هناك الآن، أنت تعلمين، وأنا واثقة أنه متورط مع امرأة أخرى. أنا

أستطيع أن أدفع المعقول. هي باقية مسلوبة اللب بذلك الرجل، ونحن نستطيع فقط أنا نأمل عندما هي تشعر بنفسها أننا نستطيع إقناعها للتحرر منه مرة وإلى الأبد. وأنا لم أعد امرأة شابة. أنا لا أستطيع العيش لسنوات كثيرة، لكن ابن شقيقي قوي وفي أوج رجولته. إنها، أنا أعترف لك، يا دستين، الأمنية العزيزة على قلبي أنني يجب أن أعيش لأراهما سالمين معاً. هو سيكون صالحاً لها. . .».

«لكن أليست هي مشلولة، سينيورة مركيزة؟» تكلمت دستين بالدفاع، عاجزة عن مشاركة كل تلك القوة الراسخة لدون مع المرأة التي قد تكون دائماً محكومة إلى كرسي عجلات. الصورة الواضحة لذلك الجسم الرجولي ومضت في ذهنها. . . هو كان الرجل الذي يركب خيوله كالعربي، بكل تأكيد امرأة مثل كوسيما تحتاج إلى الرقة؟.

«هناك دائماً أمل بأنها ما قد تستعيد استعمالاً جزئياً لساقيها» تكلمت المركيزة بأمل، لكن عيناها بقيتا كئيبتين. «ماذا تعتقدين، يا دستين، أن الرجال يتزوجون لأسباب جسدية بدلاً من القلبية؟ العديد من الإسبانيين يتخذون خليلة، وأنا أرى أنك لاحظت أن ابن شقيقي هو أكثر من رجل. ذلك لن يكون هاماً، لأنني يجب أن أعلم أنه من الجزء الأفضل منه هو سيعتني بكوسيما ويكون معها عندما تدعو الحاجة. هو لن يكون مثل ذلك الرجل الآخر! فيه الشيطان يحكم، لكن فقط من حين لآخر يكون الشيطان مسؤولاً عن آرتيز. للقسم الأكبر هو

مسؤول عن نفسه. هو يعرف طعم الألم، وهو وكوسيما متصلان بدمهما الأويريغوني، لأن والدته كانت شقيقة عزيزة».

أطلقت المركيزة تنهيدة ويداها النحيلتان بدتا هزيلتان عندما شبكتهما معاً، والخاتم الأثري الثقيل بدا ثقيلاً على أصابعها. «بطرق عديدة كانت هذه عائلة ملعونة بالحزن أكثر من السعادة. أن خط الدم الأويريغوني قديم جداً ويعود إلى الماضي البعيد، إلى عصر الأسلاف الذين لم يكونوا دائماً - شفوقين. هناك همس في إكساناس بأن هناك لعنة على عائلتنا التي لن تزول حتى يموت آخر ذكر بدون ابن يحمل دمه. في تلك الحالة سيكون خيراً إذا آرتيز أصبح فعلاً زوجاً لكوسيما. هما سيكونان بدون أطفال، وهكذا فاللعنة، إذا كان هناك طفل، سوف تنتهي. الرجل الأخير ولد في هذه العائلة مع دم أويريغوني في عروقه. نحن نعيش في منطقة مليئة بالخرافات، وهناك أناس من القرية الذين يصلبون على أنفسهم عندما يشاهدون الوجه ذو الندبة لابن شقيقي. هم يقولون أنه يحمل علامة الشيطان، وما الجدوى من إعلامهم بأنه احترق في الحريق عندما كان صغيراً؟ هم سيقولون فقط بأنها كانت نار جهنم التي احترق فيها».

ابتسامة خافتة استرقت ثانية إلى عيني المركيزة الجميلتين. «كل هذا يجب أن يبدو غريباً لك، يا دستين، فقد جئت من عالم حيث كل شيء هو عصري، وحيث كل الأشياء تفسر في مصطلحات محددة بواسطة علماء النفس. هنا في إكساناس المعتقدات السوداء للماضي لم يرفع الحجاب عنها بواسطة

العقلاء ونحن لدينا سحرة الذين يمارسون مهاراتهم على الشباب والعجزة، هم سيزودون الفتاة الشابة بجرعة الحب، أو الرجل العجوز بعلاج لأوجاعه وآلامه، والقسم الغريب في ذلك هو أن تلك الجرعات المقطرة من عمل السحرة كثيراً ما تكون فعالة. حتى أنا أقنعت نفسي بأن أدع واحدة من تلك النساء العواجيز بأن تشاهد كوسيما. أنا كنت آمل، فقط بالقليل. آرتيز، بالطبع، كان مرتاباً والمرأة العجوز رحلت ساخطة، لكنك أنت لن تفعلي ذلك، أليس كذلك، يا دستين؟ هل ستبقين؟».

«نعم، أنا سأبقى». شعرت دستين بالصدمة بواسطة اليأس الذي دفع هذه المرأة الرشيقة والذكية باللجوء إلى سحر ساحرة لكي تحاول وتعالج كوسيما. لقد كان التهاب المادة السنجابية في الحبل الشوكي الذي أصاب جهازها العصبي، ولذلك هي لن تستعيد الاستعمال الكامل من جسمها السفلي، الذي تأثر وقت الإصابة. الابتهال للتعاويذ لن يكون له تأثير بتاتاً، ودستين عضت ثانية على ابتسامة عندما شاهدت التهكم لدون سيكاتريس. مطاردة الساحرة العجوز خارج المنزل لم تقلقه بأنها قد تلقي عليه واحدة من تعاويذها الأشد انتقاماً. هو قد يكون شعر نفسه ملعوناً كفاية، لأنه كان هناك أناس في كل مكان أداروا عيونهم بسرعة عن الندبة أو العاهة البدنية.

«أنت لن تغادري بسخط لو أن ابن شقيقي نتف ريشك؟» ابتسمت المركيزة. «أنا أشك في أن عدداً من الريش قد تطاير، لكنه هكذا هو لا يقبل مغبوناً بل يتكلم بعقل، وقد يكون ذلك

مثبطاً لعزيمة بعض الناس».

«أنا واثقة أنه يمكن»، قالت دستين، بشكل لاذع قليلاً، فهي قد فقدت ريشاً في صراعها معه ـ ليس لأنها تنوي أن تصف ذلك الحادث إلى عمته، «أعتقد أنني أستطيع تحمل سخرياته وحفرياته، لكنني لن أكون سعيدة إذا هو تدخل في أي روتين أضعه لمريضتي. أنا ممرضة، لذا أرجو أن لا يعاملني كساحرة».

«إذا كنت جيدة لكوسيما، عندئذ هو سيكون ممتناً مثلي».

وقفت المركيزة على قدميها. «أنت لديك صوت جميل، يا دستين، مع البحة الجذابة فيه. وأنت أيضاً لديك مظهر مفرح. أنت ستبدين كصديقة أكثر من ممرضة لكوسيما، لأن الأخيرة كانت تروح وتغدو بالزي المنشّى مع جو من الأهمية العظيمة. هي أفرزت جواً من خزانة أدوية وخارطة لدرجة الحرارة. أعتقد أنها أثارت أعصاب كوسيما، لكنك مختلفة ـ أنا أستطيع فقط أن آمل أن واحداً من شبابنا الإسبان الوسيمين لا يخطفك من تحت بصرنا».

«ليس هناك خوف من ذلك». تكلمت دستين بحزم عندما هي وقفت على قدميها. «عملي هو حياتي، سينيورة مركيزة، وأنا لن أقع في الحب ثانية. الحب من ذلك النوع قتل بالنسبة لي عندما توفي زوجي».

«أنت تقولين ذلك، أيتها الطفلة، لكن القدر قد تكون لديه أفكار أخرى حول مستقبلك. لا أحد منا، أنت تعلمين، يستطيع

أن يكون واثقاً تماماً حتى مما قد تجلبه له الساعة التالية. نحن معلقون في تسيج من الحظ. نحن مخلوقات كثيراً ما نكون تحت رحمة المجهول. خططنا، وآمالنا، هي لعب يلعب بها القدر».

تلك الكلمات، قيلت من قلب امرأة شبت على مذهب القضاء والقدر الإسباني، وجعلت دستين ترتجف قليلاً. هي شعرت فجأة بأنها ليست آمنة تماماً، كأنها شعرت نفسها معلقة فعلاً في وسط الهواء مثل فراشة حول مصباح... فراشة سريعة العطب التي أجنحتها قد تحترق، أو تسحب من جسمها النحيل. هي عليها أن تؤمن أنها كانت في سيطرة لمستقبلها الخاص، لكن المركيزة هزت ذلك الإيمان. هي نظرت حولها، نصف خائفة، وعيناها التقتا بعيني ذلك المصارع للثيران في لوحة غويا.

سوداوتان، يقظتان، مع وميض الشيطان في أعماقهما. شيء ما بدا ينخس قلبها... هما كانتا أشبه بعيني دون سيكاتريس، ولذلك مثل عيني مانوليتو.

«لا»، هي قالت بصوت أجش. «أنا أعني أنني لن أحب ثانية، وأنا لم أخرج مع رجل لمدة سنتين. أنا لن أحطم تلك القاعدة هنا في إكساناس. إسبانيوك الوسيمون لن يشجعوا بواسطة البرودة لعواطفي حيث يتعلق الأمر بالرجال. الرجال اللاتينيون كالنساء الذين لديهم قلوب تأخذ وتحطم، إن قلبي مدفون مع ماتيو...».

«ماتيو؟» استعلمت المركيزة. «أهذا كان اسم زوجك؟».

«نعم». أعصاب دستين بدأت تجلجل بالذعر. أهي أفسحت في المجال لنفسها للنطق باسم مات؟

«إنه اسم غير شائع في إنكلترا، أليس كذلك؟» كانت المركيزة تحدق إلى دستين. «لا يسمع كثيراً هناك؟».

«أوه. . . ليس غير شائع بتاتاً»، قالت دستين بسرعة. «كما أنه اسم في الإنجيل، والعديد من الأشخاص يعطونه لأبنائهم. إنه اسم جميل، لكن بالتأكيد ليس نادراً في إنكلترا».

«إذن زوجك يدعى ماتيو شارد؟».

«نعم». الكذبة انزلقت من شفتي دستين لا إرادياً، لأن الحقيقة الصحيحة لا يمكن أن تقال إلى هذه المرأة التي عانت الكثير. «هل يمكنني أن أرى الآن السينيورة أرانداس؟ هل هي تنتظرني؟».

«نعم، هي من المحتمل أن تكون كلها مهيأة للقاء. الخادمة تساعدها لكي تأخذ حماماً، وستتناول بعض القهوة والفطور الجيد الذي أعدته فيكتوريا. لو أنها تستطيع أن تأكل أكثر! تعالي من هذه الطريق، يا دستين. جناحها على الطابق الأرضي، بالطبع، الذي نادراً ما نستعمله حيث أنني أفضل حضور القداس في كنيسة القرية. إنه يؤمن خروجاً لي، وأنا أخشى أنه لا كوسيما ولا آرتيز هما متعبدان بصورة خاصة. ابنتي فقدت الكثير من إيمانها عندما مرضها كلفها ذلك الرجل الذي ما زالت تعتقد أنها تحبه، وابن شقيقي هو الرجل الذي

يؤمن فقط بما يستطيع أن يرى ويلمس».

هما عبرتا القاعة. هنا وهناك كانت ستائر حديدية، ونماذج شبك تفريغ زخرفي التي كانت معقدة حتى يستطيع المرء أن ينظر عن قرب ويرى رؤوس فهود ومخالب نسر وشكل لغزال يركض.

«معظم القلعة هو مغربي»، قالت المركيزة. «ذلك البلاط والستائر، والطريقة التي ركبت ونقشت بها الأبواب المصنوعة من خشب الأرز. لدى المغاربة فن عظيم، وهم بنوا هذه الأسوار من الحجر الصلب السميك لكي تبعد حرارة الشمس الجنوبية، لكنك ستلاحظين بأنها تلين التأثير المنعزل بإضافة المشبك الزخرفي الناعم للحديد والبلاط الشرقي. هل يدهشك، يا دستين، أن تعلمي أن الأوبريغونيون يقتفون آثار أسلافهم حتى أيام المغاربة؟ سجلات العائلة تشمل اسم طارق، الصقر بعين واحدة، الذي كان نوعاً من فاتح لسلطان المغرب. أيام ملونة جداً، مع محاكم هنا في الجنوب التي نافست تلك التي في بغداد وبابل».

هي لديها سبب لتكره الأبريغونيين، والدون سيراقب كل حركة مثلما يراقب الصقر الأرنب.

«لا، ما تخبرينني به لا يدهشني في القليل»، هي قالت. «تلك اللمحة للصقر المغربي هي في ابن شقيقك، وفي نظرته، وفي طرقه، على ما أعتقد».

«رجعية، أليس كذلك؟» ابتسمت عمته عندما توقفت أمام

أبواب مزدوجة منقوشة. «أنا لا أعتقد أنك فقد الكثير، يا دستين».

«إنه جزء من مهنتي، سينيورة مركيزة، لقد تعلمنا أن نكون مراقبين».

«حسناً، أنا أحب النساء الشابات اللواتي لديهن فطنة حولها، لكن من، في نفس الوقت، هو ليس شخصاً مشغولاً. والآن قابلي ابنتي!».

المركيزة فتحت الأبواب المنقوشة ودخلنا ما كان ذات مرة جناح القساوسة الرئيسي في المعبد. حبست دستين أنفاسها للجمال المقهور للمكان. كان هناك إحساس بالبرودة والسلام، الذي أضيفت إليه لمسات بوضع مقاعد طويلة تحت النوافذ مغطاة بالمخمل الياقوتي وكانت هناك خزائن كتب ولوحات موريللو لمتشردين وملائكة على الجدران.

«إنه جميل جداً»، لهثت دستين. «مختلف جداً عن العمل في مستشفى».

«نعم، عندما تم التجديد، نحن تركنا الانطباع العام للجناح وأضفنا وسائل الراحة لغرفة الجلوس. كوسيما نادراً ما تغادر شقتها، وكما ترين هناك قنطرة تؤدي خارجاً إلى فنائها الخاص. هي سوف تكون هناك الآن. خادمتها أنايا أقعدتها هناك. تعالي، دعينا نخرج إليها. أنا واثقة أنها سمعت أصواتنا».

نعم، فكرت دستين. هي كانت أشبه بغرفة للأسرار مع رواق همس، ومن جديد هي شعرت بإحساس من الماضي عندما

خرجتا من القنطرة إلى الفناء، حيث جدران حجرية قديمة كانت معلقة مع شالات براقة من الزهور.

هناك تحت ظل شجرة فلفل الراهب ارتاحت السينيورة أراندا على كرسي طويل من القصب، ساقاها مغطيان بشال من الحرير. هي حدقت مباشرة إلى دستين بعينين سوداوين واسعتين اللتين جعلتا الرعب الذهبي لها قريباً إلى المزيد من الشفافية، وملامحها إلى المزيد من الهشاشة والتحديد. هي ارتدت شيفون باهت للبرودة وشعرها الحريري الأسود كان منسدلاً إلى الخلف بعيداً عن وجهها. هي كانت ذات مرة جميلة جداً، لكن الآن عيناها وملامحها تنقصها الحياة وأي اهتمام حقيقي بالأشخاص الآخرين.

«هل أنت ممرضتي الجديدة؟» هي قالت، وهي تحدثت بالإنكليزية، في لهجة كانت ستكون جذابة لو كانت هناك أية حياة في صوتها. «أنا أعتقد أن الوالدة قد أخبرتك كل شيء عن مأساتي، وحذرتك أنني أبكي عند سقوط منديل حريري؟ هل ستكونين قاسية معي، مثل الممرضة الأخيرة؟ أنا سأناديك ممرضة أو عزيزة حسب المزاج، الممرضة الأخرى لم تعجب بهذا وتمنت علي أن أكون دائماً صحيحة. هل أنت شخص صحيح، أيتها الممرضة الإنكليزية؟».

«أنا لا أعتقد ذلك، يا سينيورة». ابتسمت دستين، ونظرت إلى هذه الفتاة اللاتينية وعرفت لماذا دون سيكاتريس قد يقع في حبها. هي كانت على العكس تماماً لكل ما كان هو عليه؛

سريعة العطب، معتمدة على الآخرين لقناعتها، وتقريباً تنقصها الحيوية كلعبة شاحبة وجميلة. هو كان حيوياً بغزارة لدرجة أنه شعر بإحساس قوي للحماية نحو كوسيما. كل سطيح للحياة سيكون لديه معنى ما له، لكن هذه الفتاة لم تعد تكترث سواء عاشت أو ماتت.

لقد كان وضعاً حزيناً ودستين دهشت لأنها تأثرت به، لأن هذه كانت شقيقة مانوليتو، وهي يتوجب عليها أن لا تشعر بشيء بتاتاً حيال أي من هؤلاء الأشخاص. هي كانت، مع ذلك، واعية برغبة لتأخذ اليدين النحيلتين للفتاة بيديها، موزعة العطف بدل الكراهية..

«أنا لا أمانع ماذا تنادينني، يا سينيورة»، هي قالت، «طالما نحن نسير جنباً إلى جنب ونستطيع تأسيس علاقة عمل جيدة، أنا أريد من كل قلبي أن أساعدك لكي تتحسني».

«الماذا يتوجب عليك أن تريدي ذلك؟» بدت كوسيما مرتابة. «أنت غريبة عني ويمكن أن لا يكون لديك شعور حيال ما أشعر. أنت سيدفع لك جيداً لما تقومين به وذلك هو في الواقع كل ما يهمك. في الحقيقة، أنت لن تمكثي طويلاً ـ ولا واحدة منهن فعلت. هن وجدن إكساناس بعيدة جداً عن التسلية ـ وهن سرعان ما تعلمن أن دون سيكاتريس ليس من النوع الذي يمكن اللهو معه. ممرضة واحدة، جمقاء مسكينة، كانت فعلاً خائفة منه!».

«أنا أستطيع أن أؤكد لك أنني لست خائفة من ابن عمك».

قالت دستين ذلك بتأكيد، لكن فقط في قلبها هي استطاعت أن تعرف ذلك الخوف الغريب من الرجل المتربص في عروقها. إنه لم يكن خوفاً جسدياً، لأنه لا علاقة له بوجهه الذي كان مشوهاً بوحشية بينما هو كان لا يزال طفلاً فقط. لكنه كان هناك، وقد جعلها تضع ذقنها بمزيد من الحزم وتنظر إلى مريضتها والكبرياء في عينيها.

«كما أخبرت والدتك، يا سينيورة، أنا مهتمة فقط للقيام بواجبي بكل مقدرتي، وأنا أؤكد لك بأنني ممرضة ممتازة، ومع ذلك أنا لن أحوم حولك بزجاجات الأدوية والخرائط، وأنا سأتوقع منك أن تبقي على ما أشعر بأنه خير لك، وما أشعر بأنه شر لك».

«عزيزتي ماما»، نظرت كوسيما إلى والدتها ودعابة خافتة برزت في عينيها تحت دائرة من الظلال التي أظهرت أنها نامت بمساعدة العقاقير. «أنا أعتقد بأن لدينا ضابطاً صارماً آخر فوق أيدينا. أوه، أي إزعاج! وفقط كما كنت آمل بأن أترك وحيدة... بعد كل ذلك، أكد لي دون سيكاتريس أن النساء الإنكليزيات هن يكمن إلى المتعة أكثر من أي شيء آخر. ألست هنا، أيتها الممرضة، للهو مع رجالنا الوسيمين؟».

«إن أيام لهوي قد انتهت، ونحن يجب أن نفهم بعضنا، يا سينيورة إذا كان من الواجب أن أكون ممرضتك، فعندئذ يتوجب عليك أن توافقي بأن أوامري لها الأفضلية على أوامر ابن عمك. أنا واثقة أن لديه رفاهيتك قريبة من قلبه، لكنه ليس

طبيباً، ولا هو حاكم مطلق على العديد من نساء بلدي اللواتي يعملن بخوف ولا يسعون إلى الأبد وراء اللاتينيين الوسيمين، إنه ليس من العدل أن تحكمي علي سلفاً، أليس كذلك؟».

بدت كوسيما بلا حراك وأصدرت تثاؤباً ناعماً. «أنا أشعر كأنني نمت مع ثقل على وجهي».

«ألا تشعرين جيداً هذا الصباح، يا حبيبتي؟» انحنت المركيزة فوق ابنتها واحتضنت بلطف وجهها الخالي من اللون. «تلك الظلال الكبيرة تحت عينيك تقلقني ـ في إحدى المرات كانت لديك عينان براقتين، والآن هما فاترتا الهمة».

«كم قرصاً تأخذين لكي تنامي، يا سينيورة؟» دارت دستين إلى الجانب الآخر من الأريكة وأمسكت معصم مريضتها. كان النبض شارداً بعصبية، وذلك كان أيضاً دليلاً على تناول المزيد من الأقراص المنومة.

حدقت كوسيما إليها عندما هي عدت ضربات النبض.

«حسناً، يا سينيورة»، هي قالت ثانية. «هل هما قرصان، أم ثلاثة؟».

«إنها بقدر ما يجلب إلى النوم»، زعمت كوسيما. «نوم مظلم عميق، حيث أنسى كل شيء ـ مثل الغوص في أعماق البحر. بدون أحلام، أيتها الممرضة. لا أمس ولا غد».

عندما قالت كوسيما هذا، في صوت متشوق تقريباً، نظرت والدتها إلى دستين مع لمسة من اليأس، ولا واحدة منهما استطاعت أن تخطىء ماذا يكمن في كلمات كوسيما. . . السوق

للغوص إلى الأبد في نوم بحيث لا تحتاج إلى اليقظة لتواجه ما يحمله كل يوم، الحقيقة أنها كانت معاقة التي لم تعد تستطيع ركوب خيولها، أو ترقص، أو تكون بين ذراعي الرجل الذي هجرها.

براثن عنيفة من الشفقة التقطت عند قلب دستين، لكن ملامحها حافظت على رباطة جأشها، كما تعلمت. الشيء الأخير الذي يجب الكشف عنه كان التعاطف مع شخص ما يشعر بيأس مشابه، الذي لا يريد أن يستيقظ في الصباح لمواجهة حرمان الحياة مما جعلها مفرحة وآمنة.

أولاً وقبل كل شيء يتوجب على دستين أن تكون ممرضة عندما تكلمت كوسيما بهذه الطريقة، وألقت نظرة على صينية الفطور التي لم تلمس على الطاولة القريبة، وقالت برشاقة: «يبدو من المؤسف عدم أكل تلك البرتقالة الشهية. أنظري كم هي جميلة عندما قشرت لك، وقطعت مثل زنبق الماء ـ لماذا لا تتخيلين أنك تأكلين واحدة، تقطفين البراعم واحداً تلو الآخر؟».

«لماذا لا تفعلين أنت، إذا كان البرتقال هكذا شهياً؟» قالت كوسيما بوقاحة. «أنا لم أكن جائعة ـ الأمر يحتاج إلى تدريب هكذا أخبرني طبيبنا الصالح. أنا أعطى فيتامينات مكان الطعام وأنا فقط لا أستطيع المواجهة في الصباح. أنا أخبر الوالدة باستمرار أن الطعام الجيد يذهب هباء، لكنهم ما زالوا يحضرون لي الصينية. لأجل ماذا تم إعداده؟ فقط للادعاء بأنني ما زلت

حية بدلاً من نصف ميتة؟».

«يا كوسيما، أرجوك لا تتحدثي هكذا». بدت المركيزة متكدرة جداً. «نحن نفعل كل ما نستطيع لأجلك، لأنك حية بالنسبة إلينا ونحن نحبك».

«هل أنا حية لميغيل؟ هل هو يحبني؟» ابتسامة ملتوية جعلت ذلك غير مؤكد إذا كانت كوسيما ستبكي أو تصرخ. «أتمنى لو أنكم جميعاً تدعونني أذبل بصورة طبيعية كالزهرة الذابلة ـ أنتم تدفعونني للقيام بما أعلم أنه سيلعن روحي في عيونكم، يا أماه، في ليلة واحدة أنا سأبتلع الأقراص كلها».

«عندئذ ستمر في عذاب غسل معدتك، يا سينيورة؟» سألت دستين. «أنا راقبت هذه العملية، وهي بعيدة عن السرور وهي، في الواقع، إجراء بشع. إنها تؤلم وتنقصها الكرامة. هل ذلك هو ما تحبين أن تعاني، لأنك إذا أخذت الأقراص أنت لا تتخيلي أنني سأدعك تفلتين بجلدك، أليس كذلك؟».

حدقت كوسيما ثانية إلى دستين، كأنها تحاول أن ترى الشخص الحقيقي تحت الواجهة من الشعر والثوب الأنيقين، والوجه المحفور في قناع من رباطة الجأش الباردة. «لقد قيل أن زوجك مات شاباً»، هي قالت. «هل هذا صحيح؟».

«نعم، يا سينيورة، إن زوجي مات يوم زفافنا».

«وأنت ألا تريدين أن تموتي؟ أم هل ذلك سيعوض عليك أنه ما زال لديك الاستعمال الكامل لجسمك وأنك تستطيعين إيجاد شخص آخر كي يحبك؟».

«أنا عرفت حزناً كبيراً»، قالت دستين بهدوء. «وأنا أيضاً عرفت أن لا شيء يمكن أن يعوضني عن خسارة ما ـ زوجي. هو وعد ليكون طبيباً لامعاً، وهو كان شفوقاً جداً. أنا لا أتوقع أن أجد مثله ثانية، يا سينيورة».

«لكن لديك صحتك ـ وعملك»، قالت كوسيما بقسوة. «ماذا تعتقدين أن لدي؟ أنا لن أتدرب في أي شيء عدا السحر وكيفية الاعتناء بالخيول وبالشباب. أنا الآن كساحرة مثل عود من الخشب، مع ساقين شبيهين، وقلب يسير معهما، أنا أرقد على هذا الفناء، أراقب الطيور عندما تطير وتتعاشر، وأعد الساعات حتى أستطيع أن أغرق ثانية في نوم لا قرار له. إنها حقاً حياة تحسد، أليس كذلك؟».

«أنا شاهدت ضحايا شلل مصابين هكذا، يا سينيورة، لدرجة أنهم يجب أن يقضوا أيامهم ولياليهم في رئة حديدية. بعضهم استطاع أن يحرك فقط إصبعاً، وأصبح مثل هذا الرجل كتب كتاباً، وطبعه بنفسه بذلك الإصبع الوحيد».

«ربما كان لديه دماغ ليبدأ به»، ردت كوسيما. «كل ما لدي أن أعطي هو نفسي، والرجل الذي أعطيه نفسي أراد امرأة كاملة، وليس واحدة مع نصف جسمها وزن ميت. أنا سوف لن ألوم ميغيل على تركي. أنا أفهم لماذا هو غادر. هو كان مليئاً جداً بالحياة قادراً على تحمل فقط نصف زوجة. لماذا يتوجب عليه أن يجعل من نفسه قديساً؟ لو أنه بقي للذهب من وراء ظهري سعياً وراء لذته. وكما كان هو غادر علناً بدون خداع.

لقد كانت شجاعة منه ليقوم بذلك».

«لقد كانت أنانية». لم تستطع دستين أن تردع الكلمات. «الأشخاص الحقيقيون لا يتهربون من التزاماتهم، يا سينيورة. هم يواجهونها، ليس بكونهم قديسين بل بكونهم حقيقيين مع أنفسهم ومع الشخص الذي تضرر عبر غلطة ليست منه».

«أنت تتكلمين كرومنطيقية». بدت كوسيما ساخرة. «أنا اعتقدت أن الأشخاص الإنكليز كانوا واقعيين - صحفهم ومجلاتهم تفخر دائماً بأنهم هكذا».

«الصحف والمجلات، يا سينيورة، هي في أيدي رؤوساء التحرير الذين ربما يخافون الاعتراف بأن الرومنطيقية هي ليست تماماً ميتة مثل طائر الدودو الذي انقرض. هم سيحبون قتله، لأن ذلك أسهل من أن يكتبوا عن أشياء دنيئة».

«مع ذلك أنت، كممرضة، يجب أن تكوني قد شاهدت العديد من الأشياء الفظيعة». كوسيما أعطت دستين نظرة فضولية. «أنت لا تبدين ممرضة نموذجية لتجربتي، وذلك لم يكن يعتد به في السنوات الثلاث الأخيرة. هل أنت في الواقع تعتقدين أنك ستجدينني محتملة، وإكساناس، التي هي في عمق الجنوب لدرجة أنك ما زلت تسمعين موسيقى مغربية، والرنين لأجراس صغيرة على خلخال زهرة، والعبدة التي تتردد على فناء نافورتنا. نحن عائلة غريبة، أيتها الممرضة. نحن نعيش كثيراً في الماضي، وأنت من لندن، التي هي واحدة من أشهر العواصم في العالم. أنا أتنبأ بأنك ستهربين منا في خلال أيام».

دستين لم تتجادل مع كوسيما. هذه كانت عائلة مانوليتو وهي لا تزال غير واثقة لماذا هي قررت البقاء. هي عرفت أنها فقط شعرت بالتحدي لدون، وبواسطة هذه الفتاة الإسبانية التي كانت مرة مرحة وحيوية، والتي هي الآن تتمنى فقط أن تجد سهواً خالياً من الأحلام.

«أنا لست خائفة من البلد، وأنا أدبر مكيدة بواسطة شبحك»، قالت. وعندئذ هي توترت عندما كوسيما حولت نظرتها فجأة إلى ما وراء كتف شجرة نخيل التي كانت قاعدتها مطوقة بالبوغنفيليا (جهنمية) لم يكن هناك شبح بل التمثال الحيوي جداً لدون سيكاتريس. دخان الشيروت انجرف حول ملامحه السمراء، وعيناه بدتا بأنهما تسخران منها.

«إذن ممرضتنا لا تخشى الأشباح»، هو تشدق. «ربما الأشخاص الذين هبطوا إلى الأرض هم الذين جعلوها ترتجف؟».

«أمن المفروض أن أكون ورقة مرتجفة في حضرتك، يا سينيور؟» هي سألت، بينما الغضب سرى في أوصالها عندما نظرت إليه وعرفت أنه كان يشارك لقاءهما الأخير. كلاهما عرف أنها شعرت بالضعف مع خوف منه، وهي اشتاقت مرة أخرى أن تصفع تلك الابتسامة الساخرة من شفتيه. هي عرفت أنه سيفعل كل شيء ليجعل بقاءها مستحيلاً، واللهب الأزرق أضاء عينيها... لهب مقاتل جعل عينيه تضيقان، بحيث أن الرموش السوداء التقت وجعلته وحشاً بشرياً.

«ستري»، هو قال. «فقط كم تستطيعين البقاء معنا».

«يا آرتيز، بالله عليك لا تفقدنا ممرضة أخرى»، تعجبت المركيزة. «أنا في الواقع بدأت أعتقد أن لديك كراهية ضد الممرضات ـ ربما ذلك يعود إلى طفولتك. كما شرحت إلى دستين، أنك تضررت كثيراً في تلك الفترة و. . .».

«دستين؟» هو تدخل، ونظرته سخرت منها بغطرسة. «إذن ذلك هو اسمك؟ أنا تعجبت إلى ماذا يرمز حرف D.D هو حرف له مغزى، أليس كذلك؟ يدل على العزيزة والحبيبة؛ والشيطان والموت».

«يا آرتيز، اذهب إلى عملك»، قالت عمته بحدة. «إنك ستطرد دستين قبل أن تسنح لها الفرصة للتعرف علينا. نحن لسنا سيئين كما يصورنا، أيتها الطفلة. هو فقط إسباني نموذجي الذي يؤمن بأن العائلة يجب أن تحاول وتشفي مرضاها بدون الاستعانة بالغرباء».

«إنه لا يفاجئني بأنه يكرهني، الكراهية هي متبادلة، كما هي أحياناً بدون سبب محسوب. أنا لا أعتقد أن ابن شقيقك لديه الكثير من التعاطف مع الجنس البشري».

«ساخر، أليس كذلك؟».

«جداً»، راقبت دستين عندما قطة بيضاء بذيل أسود قفزت إلى حضن كوسيما وبدأت تموء عندما اندست بين ذراعيها النحيلين. «إنها قطة جميلة جداً، يا سينيورة».

«إنه قط وابن عمي أعطاني إياه، للمرافقة عندما هو لا يكون

قريباً. أنا أسميه دومينو، وهو سيكون جزءاً من مهمتك لرؤية أن تلك الفتيات من المطبخ لا ينسين صحنه من الحليب وطبقه من الكلاوي المشرحة. تلك الفتيات يفكرن فقط حول ـ آه، لكنني أحسدهن على شبابهن وقدرتهن على الضحك والرقص في الأعياد، الحياة غريبة، أليس كذلك، يا دستين؟».

«غريبة جداً، يا سينيورة، بطرق ما».

«هل يخطر ببالك أنها غريبة لدرجة أن دون سيكاتريس يحبني؟».

«لا»، دستين هزت رأسها. «نحن جميعاً نحتاج لحب شخص ما».

«مع ذلك تقولين أن الحب انتهى بالنسبة إليك؛ ولي».

«إنه كذلك»، قالت دستين. «زوجي كان رجلاً طيباً».

«وهكذا أنت فقط تحبين الرجال الطيبين؟»، ابتسمت كوسيما، لنفسها تقريباً. «أنت تجعلينني أشعر بأنني أكبر منك بكثير، ومع ذلك نحن بنفس العمر. يا عزيزتي الممرضة، أن عليك بعد أن تتعلمي أنه حتى يصبح لدى المرأة شيطاناً محبوباً فهي في الواقع ليست عاشقة».

الفصل الرابع

نوعاً ما انقضى أسبوع، ولمعظم تلك الفترة كانت دستين مع مريضتها، التي طورت زكاماً ولذلك احتاجت اهتماماً إضافياً أساسياً للشخص الذي لا يستطيع أخذ تدريب بدني، واحد من أفضل الطرق لمنع الزكام من الذهاب إلى الصدر.

بسبب الشعور الذي غرقت به كانت كوسيما متبرمة وميالة لالتقاط نزاعات قليلة مع كل شخص، ممرضتها بالأخص. لكن دستين كانت معتادة تماماً على أمزجة المرضى لكي تأخذ الكثير من الملاحظة، وفي النهاية ابتسمت كوسيما لها بتجهم وأخبرتها

أنها كانت من المادة التي صنع منها الشهداء.

«أنا اعتقدت أنك ستجدين هذا المنزل كالسجن ولن تمكثي هنا»، هي قالت، وجففت أنفها بمنديل حريري. «أنني لأعجب ما الذي غير رأيك؟ إنه لا يمكن أن تكوني قد وجدت ابن عمي وسيماً ما لم تكوني من النوع الذي يحب الشكل الرجولي ولا يهتم بالنظرات الساحرة».

«كما قلت لك من قبل، يا سينيورة، أنا لست مهتمة بالرجال بتاتاً»، رتبت دستين كومة من المجلات وأعادت الغطاء على الصندوق. «هل كنت جئت كل هذه الطريق لأعمل إذا لم أستطع العيش بدون رفقة رجل؟»

هزت كوسيما كتفيها، المرتدية روباً من حرير الشيفون المحفوف عند كميه الكاملين بفراء بيج ناعم. «لو كنت في حذائك وأستطيع المشي، لخرجت من هنا وذهبت حيث الحياة والبهجة. إنه جحيم على الأرض أن أكون مقيدة في كرسي معاقة، فقط نصف امرأة بدلاً من امرأة كاملة. من يستطيع أن يشتهيني؟ عندما أنظر إليك يا دستين، أنا أكون مليئة بالحسد، وأنا لأعجب لماذا تحملين شخصاً مثلي عندما تكونين حرة للقيام بما تشتهين. هل كنت غارقة في حب زوجك لدرجة أنه لم تعد لديك رغبة لحب أي رجل آخر؟ أية حالة غير طبيعية للعقل والجسم عندما تكونين في الواقع شخصاً في غاية الجاذبية - لماذا، أنت كالراهبة التي نذرت نفسها للعفة والطهارة، وأنت يجب أن تدبري مكيدة لدون سيكاتريس لكثرة

ما ينظر إليك بعينين ساخرتين».

«أنا واثقة تماماً بأن مشاعره مركزة عليك، يا سينيورة»، أكثر من مرة جست كوسيما بهذه الطريقة، كأنها تغار من حب ابن عمها لها حتى ولو لم تتجاوب معه. هي تريد أن تكون واثقة بأنه ليس مهتماً في أية فتاة أخرى، ودستين كانت فقط مستعدة تماماً لتطمئنها بأن لا شيء سوى الكراهية المتبادلة موجودة بين نفسها والإسباني الطويل ذو الندبة.

«ابن عمك لا يخطر ببالي كدون جوان»، هي قالت، متوقفة عند طاولة الزينة لتعجب بالتواليت. «أنا يجب أن أفكر أنه مرة وضع قلبه على امرأة هو سيريدها ولا يريد سواها».

«أنني لأعجب لماذا أنت هكذا واثقة»، تشدقت كوسيما. «هل هو يثق بك؟».

«يا إلهي، لا!» دارت دستين حول طاولة الزينة وعيناها مذعورتان بلمعان. «نحن قلما نلتقي، دعك عن التكلم لوحدنا. هو يكرهني، ويساويني بالمسترخيات في الشمس في الكوستا برافا».

«حتى مع أنك أمضيت أسبوعاً في غرفة مرضي؟» أطلقت كوسيما ضحكة انفجرت إلى تنهيدة. «يقال أن النساء هن لغز الحياة، لكن دعيني أخبرك، يا دستين، أنه هنا في إسبانيا إنهم الرجال. في هذه المنطقة الخاصة هم نصف عرب والطرق الغريبة للصحراء تتردد في دمهم. أنا أحذرك بأن دون سيكاتريس ليس كالأطباء الشباب في مستشفاك الإنكليزي،

وحتى مع أنني عرفته طول حياتي، أنا لا أعترف بأنني أعرفه. أحياناً هو... هو فعلاً يخيفني....».

«أنت؟» تعجبت دستين. «لكنه يكترث لك، يا سينيورة».

«أنا لست أعني بأنه سيضربني - لا، هذه فكرة مضحكة جداً. لكنه هكذا عميق، ولهذا أنا دائماً خائفة قليلاً منه. هو سموح، أنا أعتقد، يكسر عنق المرأة إذا هي أخذت حبه ومن ثم تلاعبت به. الحب الذي يشعر به نحوي هو ليس من ذلك النوع، إنه أكثر من عاطفة، وحماية... آه نعم، يا دستين، هو يستطيع أن يكون رحيماً، لأنه إسباني. عروق القسوة والرحمة تجري جنباً إلى جنب في الرجال من بلدي، الذين يمكنك أن تعادليهم بمصارع الثيران. أليس هذا كذلك؟ بالنسبة لي ابن عمي هذا يرمز إلى ملاكي، وأنا شاكرة لأنه يعطيني الجانب الحلو من قلبه بدلاً من العكس. أنا لا أستطيع أن أكون امرأة كفاية لأصلح كل ما في قلب دون سيكاتريس، أنا لا يمكن أن أكون ملاكاً وشيطاناً في جسد واحد، وذلك هو ما يحتاجه».

لم تتجادل دستين مع كوسيما، لأنه كان هناك الكثير من الحقيقة في ما قالت. هو كان من نوع الرجل الذي قد يكون لطيفاً مع امرأة متألمة، أو طفل يبكي، لكن عندما يأتي الأمر للشهوة فهو سيكون السيد المطلق للمرأة بين ذراعيه وهو سيظهر الشيطان فيها.

قررت دستين من البداية أنه الرجل الذي يجب تجنبه، لكن تخلصت كوسيما من زكامها ومشاعرها كانت جيدة من جديد،

هي لم تعد ترغب في تناول عشائها وحدها مع ممرضتها ودستين كان عليها أن تربط نفسها لمزيد من الاتصال الاجتماعي مع الرجل. العائلة تتعشى عند الثامنة والنصف في المساء وهي طلبت الانضمام إليها.

أنايا، الخادمة التي كانت مع كوسيما منذ كانت طفلة، كانت مسؤولة عن تواليت السيدة، وهكذا كانت دستين قادرة على الاستعداد للعشاء بدون أن تهرع تحت الدوش وإلى ارتداء الثياب.

حقيبة ثيابها كانت قد وصلت من مدريد منذ عدة أيام، وهكذا هي كانت قادرة على اختيار ثوب من بين ثيابها الرسمية التي كانت قد أحضرتها معها. كان اختيارها بلوزة حريرية طويلة الكمين التي كانت قد اشترتها من مدريد، حيث كان الحرير من صنع اليد، وناسبتها مع تنورة مخملية طويلة بلون الباذنجان.

نظرة إلى ساعة معصمها أظهرت لها أن الساعة قاربت الثامنة، عندما تجتمع العائلة في الصالة الصغيرة الملاصقة لغرفة الطعام لتناول المقبلات. مع أن هذه كانت عائلة تعيش في قلب الجنوب، فعاداتها كانت متحضرة. رافعة تنورتها الطويلة فوق كاحليها، نزلت دستين السلم الطويل الملتوي. هي شاهدت جمالاً غريباً في المصابيح الملونة، ومتعت ناظريها بالقناطر المتشابكة، بأعمدتها ذات المسحة المغربية... لقد بدا عملياً أن فتاة عبدة تتجول في هذه القاعات، وأجراساً صغيرة تصدر موسيقى ناعمة مغربية على كاحليها... وفي تلك اللحظة،

سرت رعشة في كل أوصالها، وظل خرج من قنطرة إلى بركة من الضوء الذهبي ودستين شاهدت ذراعاً مرتدية الأبيض ترفع بتخاذل لتحمل سيجاراً رفيعاً إلى شفتين موضوعتين في وجه رجولي أسمر.

هو لم يقل كلمة، بل وقف هناك ونظر إليها، عيناه غامضتان كالظلال التي كانت تخفيه عنها. هو يرتدي جاكيت عشاء بيضاء فوق بنطلون أسود ضيق. كان هناك وميض حجر الدم عند طرفي كميه.

«مساء الخير، يا سينيور»، جمعت دستين رباطة جأشها كمعطف حولها وهبطت الدرجات الباقية مع ادعاء بالارتياح. هي لن تعتاد على امتيازه الوحشي، وطريقته بالدخول والخروج بصمت مثل نمر الغابة الأرقط الذي يقتفي آثار طريدته.

«أنت تبدين مذهولة»، هو قال. «هل توقعت رؤية شبح القلعة؟ أنا أعتقد أنك قلت بأنك لا تخافين منه؟».

«يبدو أنك تعتقد، يا سينيور، أن كل شيء أقوله يتوجب عليك أن تستجوبني عنه. هل هناك محققون في أسلافك كالمغاربة الذين يحتفظون بالفتيات من العبيد؟».

أسنانه البيضاء ضغطت على السيجار، والدخان تصاعد وتلوى فوق ملامحه عندما هو سمح للصمت بأن يمسكهما في نوع من الحيرة. رائحة الأزهار الاستوائية انجرفت إلى الداخل من الحديقة واختلطت مع الدخان الغني، وشعرت دستين ثانية بذلك التحرك من الخوف والسحر. هو عرف بتورطها المأساوي

مع مانوليتو وذلك كون سراً بينهما، والأسرار كانت من الأشياء الحميمة.

«أنا آخر رجل في إسبانيا ينكر أن تاريخنا كان تاريخاً قاسياً»، هو قال. «لكن يسليني أن شعبك يجب أن يعتبروا أنفسهم ملائكة فقط بسبب بشرتهم وشعرهم الشقراوين. تقفين هناك تبدين سماوية ورشيقة، لكن كلانا نعلم، أليس كذلك، أنك تعرفين كيف تكرهي وأنت تكرهينني وتشاهدين فيّ كل خطايا مانوليتو».

«انني أشعر بالكراهية. . . التي كلانا نشعر بها، لبعضنا، يجب أن تضع عقلك في راحة، يا سينيور، في هذه الظروف أنا لن أشعر بالاغراء لكي أركض خلفك من أجل حمايتك وثروتك».

هو قوس حاجباً حتى إلى قنطرة أكثر شيطانية، والدخان التوى من الشفتين اللتين ابتسمتا باختصار وبسخرية. «أنا لن أشعر بأقل حماية نحو أية امرأة، يا سينيورة، وليس فقط لأنك تكرهينني. الكراهية للمرأة هي عضة ذبابة صغيرة، كما نقول في إسبانيا، الكراهية والحب متقاربان جداً بحيث لا يستطيع أي شخص في الواقع أن يعرف الفرق».

«أي هراء هذا!» تكلمت دستين بحدة. «أن لن أستطيع أن أخطيء أحدهما عن الآخر. . . أنا شعرت بطعنة الكراهية تسري في أوصالي عندما خرج ابن عمك حياً من سيارته بينما زوجي رقد هناك ملطخاً بدمائه، ميتاً! كان باستطاعتي أن أقتله بنفسي!

أنا. . . أنا تمنيته ميتاً!».

بعد فترة صمت، أضافت دستين، «كان ابن عمك فتى لاتينياً لعوباً. . . أوه، ليذهب إلى الجحيم! أرجو أن يكون حيث تطهر النفوس!».

«يا عزيزتي المرأة الشابة، ان جهنم والجنة هما هنا على الأرض».

حدقت دستين إلى دون سيكاتريس. «أنت إسباني، إذن كيف يمكنك أن تؤمن بذلك؟» هي قالت.

«أنا كلبي»، هو هز كتفيه. «وأنا لدي أماً إنكليزية».

«لكن المركيزة أخبرتني أنها هي ووالدتك كانتا شقيقتين».

«شقيقتان من الأب»، هو صحح. «والدهما تزوج مرتين، وابنته الإنكليزية كانت والدتي. ند ممتاز رتب لها، لكنها وجدت أنها لا تحب والدي ولا أنا، وبعد فترة ليست طويلة من ولادتي هي تركتنا نحن الاثنين. أنا جئت إلى حضانة المركيزة لأن والدي كان دائماً رجل أعمال. هو كان مدير الأشغال العامة، والذي توفي في الحرب الأهلية».

خيم الصمت، وعندئذ انتقل دون تماماً إلى ضوء المصباح وندبته ظهرت واضحة على بشرته. «نعم، أيتها السينيورة، إسبانيا هي أرض القديسين والوحوش البشرية، ومن المعروف أنه كان لها تأثير غريب على النساء الأجنبيات اللواتي يأتين إلى هنا، خير لك أن تحترسي، أليس كذلك؟».

«نعم»، هي قالت، بصوت غير مدرك تماماً لما أوعز به،

لأنها كانت لا تزال متمسكة بالأشياء الشخصية التي أخبرها بها.

«ماذا حدث لوالدتك، يا سينيور؟ هل تشاهدها؟».

«هي تزوجت من رجل إنكليزي وتعيش في مكان يدعى شيلترن هيلز، والآن أنا لن أراها».

«الماذا...؟» توقفت دستين عن سؤالها، لأن نظرة واحدة إلى وجهه الصلب كانت كافية لتخبرها أن لديه الكثير من الكبرياء لينشد معرفة أو حب المرأة التي هجرته منذ كل تلك السنين. هي فهمت، ومع ذلك بدت حزينة، نوعاً ما، لتسمح للآلام القديمة بأن تستمر في إعطاء الألم.

عندئذ التقطت دستين أنفاسها، لأنها كانت مثله في ذلك المجال... هي لا تستطيع أن تصفح، أو تنسى. كراهية ما يؤلمك يمكن أن يكون نوعاً ما درعاً ضد مزيد من الألم، وهي أسقطت نظرتها عن وجهه وسارت معه في اتجاه الصالة الصغيرة.

«آه، هذه هي سينيورتنا شارد الممرضة والرفيقة لكوسيما. تعالي وتعرفي على صديق لنا الذي جاء إلى إسبانيا لشراء ثيران لمزرعته في ويلز».

اقتربت دستين عند الدعوة ووجدت نفسها في مواجهة رجل رجولي الذي كان شعره أسود مثل دون. اسمه كان لوغ دافيدسون وهو نظر إليها مع ومضة من الدهشة في عينيه الخضراوين. بسرعة هو نظر إليها فوق وتحت، وخطوط ابتسامة ظهرت بجانب عينيه.

«الماذا لم تكن عندي ممرضة مثلك عندما نزعت زائدتي الدودية؟» هو سأل. «أنا سعيد جداً بلقائك، يا آنسة شارد».

«انني السيدة شارد»، هي قالت على الفور. «وهل الإسبان في الواقع يسمحون لثيرانهم الشهيرة بالخروج من البلاد؟ أنا اعتقدت أنها كانت على الأغلب تستعمل في ميادين الصراع».

«أنا سأقول أن هذه السيدة الشابة هي عدوة بدلاً من مساندة، بعكس بعض الزائرات الأخريات إلى إسبانيا اللواتي يجلسن في أفضل المقاعد يصرخن في آذان المتوحشين الفقراء».

عينا دون السوداوان ورفرفتا على وجه دستين. «الممرضة شارد هي مقتنعة تماماً»، هو قال، في نغمة صوته الأكثر سخرية. «إن الرجال من إسبانيا هم ما زالوا كما كانوا في أيام الفاتحين. قساة، أنت تعلم، وبالأحرى وحوش بشرية».

مع هذه الكلمات هو ابتعد ثانية، ليلعب دور المتودد إلى كوسيما على إحدى الصوفات المطرزة.

«مؤسف بالنسبة إلى تلك المخلوقة الجميلة»، قال لوغ دافيدسون. «هل هي ستمشي ثانية، أيتها الممرضة شارد؟».

هزت دستين رأسها. «الأسف الأكبر هو أن زوجها لا يقف بجانبها. الإخلاص والحب هما أفضل علاج في العالم وهي تستطيع أن تشعر... حسناً، بأنها امرأة، كما هي تشعر بأنه لا جدوى منها للرجل وهي تحتضن حول ذلك».

«آرتيز هو مولع بها»، أدار لوغ كأسه بأصابعه. «هو شخص غريب في بعض النواحي، لكنه قد يكون زوجاً صالحاً لها،

على الأقل هو ما كان ليتركها عندما فقدت استعمال ساقيها. الحياة تأخذ الالتواءات والمنعطفات الغريبة، ألا تعتقدين؟».

«إنها حقاً هكذا، يا سيد دافيدسون». ألقت دستين نظرة قصيرة على دون، الذي كان يميل بحماية ليلتقط ما تقوله له ابنة عمه، وهناك ومضت في ذهنها ذكرى لما قاله حول أنه لا يشعر بحماية نحوها. هي استطاعت أن تقف لنفسها، فأي مواجهة بينهما ستكون. . . إعلان حرب!

نظرت دستين إلى تلك العينين الساخرتين المنحنيتين فوقها، ومرة ثانية احتكت أصابعها لتضع صفعة على خده الساخر. هو كان فقط أكثر شيطان مهيج الثقة، وقد بدت براعة مستحيلة أن تحاول وتخرج معه.

«انها راحة لأقول لك تصبح على خير»، هي قالت. «هل لي أن آمل بأنك ستتركني لوحدي في المستقبل، الآن وقد عرفت أنني لست من النوع الحر والسهل؟».

«يا سينيورة»، هو تشدق. «لو كنت سهلة من الفضيلة، إذن لكان من السهل جداً التغاضي عنك، تصبحين على خير، أيتها الممرضة شارد، ونامي بدون إزعاج».

«أنا أنوي ذلك، يا سينيور، إذا كنت تأمل بأنني سأنزعج بأي شيء قلته لي، تصبح على خير!» هي فتحت الأبواب المزدوجة لغرفة جلوس مريضتها بدون أن تنظر ثانية إلى دون سيكاتريس.

هي شعرت أنها قامت بمخرج جيد، لكنها لم تستطع أن تتجاهل التأثير غير المستقر للأشياء المحددة التي قالها. . . ولا

استطاعت أن تطرد الشعور الباقي من رؤوس أصابعه القاسية على بشرة حلقها. بشرتها توترت، ونملت، وجعلتها تشعر بالذنب بغرابة عندما هي اقتربت من جانب سرير مريضتها، لقد جاء كطعنة ارتياح أن كوسيما كانت نائمة، لأنه لم يكن حتى أصبحت بجانب السرير أن أدركت الحالة المنفوشة لشعرها. لو أن كوسيما استيقظت لتراها، لأرادت أن تعرف لماذا ممرضتها كانت مشوهة هكذا بطريقة غير عادية.

رفعت دستين يداً إلى شعرها، ويدها كانت غير ثابتة.

الفصل الخامس

الأيام القليلة التالية كانت لها صفة الشؤوم حولهما، كأن سحابة تدلت بالحاح في السماء الزرقاء، تهدد كل ساعة بعاصفة مفاجئة.

مع ذلك فقد كان ذلك فقط وهماً، لأن الأيام كانت مضيئة بالجمال، حارة وضبابية مع أشعة الشمس وفيض من الأزهار في الحدائق المسورة للقلعة.

رؤية دون أصبحت لدستين عذاباً ورقة، بدنياً وطعناً للقلب. هو ينظر إليها، وهي تنظر إليه، وإدراك سري سيكون ملموساً

بينهما كسلك فولاذي رفيع، يشد الأعصاب، ويسحبها، بحيث أن دستين دائماً تختلق عذراً ما للتهرب قبل شيء ما في سلوكها يلفت انتباه كوسيما. كان الخطر الأكبر عندما تجد نفسها وحيدة معه، وهكذا هي تجنبت الأماكن التي يكون فيها على هواه، البساتين، الإسطبلات، مكان الحطب على الطريقة المغربية.

فقط أن تراه كان كافياً لدغدغة الشوق الحاد، وعندما يبتسم بابتسامة ساحرة حزينة، إسبانية بظلال معانيها الخادعة، هي تريد أن تصرخ إلى كوسيما بأن ذلك كان خاطئاً... خاطيء بشكل رهيب للتلاعب على شهامته، هو لديه الكثير ليعطيه للمرأة أكثر من مجرد الشفقة، وذلك كان كل ما تريده كوسيما منه. فارسها الشهم، دائماً حامياً لها وللمركيزة، ومتورط بعمق في إدارة الممتلكات. هو لن يقوم بطلبات شخصية. الزواج سيكون واحداً في الاسم فقط... دستين عرفت ذلك مع أعمق غرائزها.

المعرفة كانت مصدراً للألم وواحداً من المتعة الحادة، إنها تعني أنه كرجل... تماماً كرجل هو أحبها.

وقد كان ذلك الحب، والخزي والعار هو لا يريد أن يجلبهما له، هو الذي أعطى دستين الشجاعة لتتقرب إلى المركيزة ذات صباح مشرق، حيث تجلس في الصالة الصغيرة مع رسائلها. أخبرتها دستين أن ابنتها قد شفيت الآن كما يجب ولم تعد بحاجة ماسة إلى ممرضة خاصة.

«لا... يجب أن لا تلهيي»، بدت المركيزة مشدوهة، كأن

مغادرة دستين ستؤدي إلى نكسة في شفاء كوسيما. «أمكثي شهراً آخر معنا، دعينا نتأكد أن محبوبتي قد شفيت حقاً».

«أنا لا أستطيع البقاء شهراً، سينيورة مركيزة». الهلع أمسك بدستين، لأنها عرفت في قلبها أنها أرادت أن تتمسك بأي عذر للبقاء هنا، وهكذا تستطيع رؤية دون كل يوم حتى لو لم تجرؤ على إيجاد نفسها وحيدة معه، ذلك سيكون جحيماً سماوياً، لكن عليها أن تجد القوة لكي تتركه.

«ليس هناك من تبرير لي للبقاء»، هي قالت، وهي لم تستطع أن تمنع صوتها من الارتعاش قليلاً. «أنا فقط سأتجول، وآخذ راتباً بدون أن أعمل أي شيء. كوسيما لم تعد بحاجة لي».

«الأمر سيان»، يدا المركيزة أمسكتا بيدي دستين. «ابقي معنا وكوني ضيفتنا لفترة. أنت حصلت على إجازة وليس هناك مكان على الأرض أجمل من إكساناس في الصيف، أيام النهار حارة، أنا أعلم، لكن الأمسيات هي سماوية وأنت عملت بجد ولديك الكثير لكي تكافحي من أجله بنجاح. أنا أعلم أن كوسيما لم تكن مريضة سهلة، لكنها الآن تبدو مستسلمة. أنت بحاجة للراحة، وأنت تحبين القلعة، أليس كذلك؟ إنها أصبحت بمثابة وطن ثان لك؟».

«نعم»، تمتمت دستين، وهذا كان صحيحاً، لأن الشبح الأسود لمانوليتو قد تلاشى وهي ضاعت تقريباً في الإطار الحي القوي للرجل الذي ازدادت حباً له. «ليس هناك منزل أجمل، لكنني في الواقع يجب أن أغادر عند نهاية الأسبوع. أنا أريد أن

أتقدم في مهنتي وذلك يمكن القيام به فقط في إنكلترا».

«هذا هو مستقبلك»، تعجبت المركيزة. «هو لم يحتل المكان الثاني للرغبات التي يجب أن تحتل المكان الأول للمرأة؟ أنت جذابة جداً لتكوني بين التماثيل على الرف، وأنا أشعر بأن لدي ميلاً قوياً بأنك ستجدي إسبانياً شاباً قوياً لك لكي تقعي في حبه. . . ما الأمر؟ لماذا تلتقطين أنفاسك؟ هل أنت ما زلت تريدين أن تخبرينني أنك لا تريدي أن تحبي رجلاً؟».

شعرت دستين بهدوء أنها تمزقت بالسؤال، لأنها لن تصدق عمق شوقها للإسباني الذي كان سيصبح الصهر لهذه المرأة الرشيقة.

«أعتقد، سينيورة مركيزة، أنه يتوجب علينا أن نتقبل ما يخبئه لنا القدر، وأنا أؤمن بأنني أعني لأكون ممرضة لا زوجة».

«آه، أية مضيعة للوقت!» ابتسمت المركيزة ولمست خصلة من شعرها الأشقر التي فرت من عقدة مؤخرة عنق دستين. «ما أجمل الأطفال الذين سيكونون لديك، وكم سيكون محظوظاً الشاب الذي ستكونين في حياته، هكذا حكيمة ودافئة القلب، وهكذا جميلة لينظر إليك. هل ما زلت تشتاقين لزوجك؟».

«أنا سوف لن أنساه»، قالت دستين، وقد كان ذلك صحيحاً.

«إذا عدت إلى إنكلترا فالذكريات القديمة ستغمرك»، قالت المركيزة. «ألا تبقين معنا؟».

«حتى نهاية الأسبوع»، وعدت دستين. «عندئذ يجب أن أذهب. . . أنا في الواقع يجب».

هبة من هواء الليل لفحت وجه دستين عندما خرجت إلى الفناء، مليئاً بروائح مئات الأزهار المتسلقة على الأسوار التي تغلف الفناء الذي هربت إليه، فقط لتجد نفسها سجينة عندما جاء دون بسرعة وبصمت في أثرها، وشدها إليه، وأخذها بوحشية إلى صدره القوي.

«لماذا لا تستطيع أن تتركني لوحدي!» هي ضربت على صدره وهو لم يوقفها. هو سمح لها بأن تستنفد قواها، حتى سقطت صامتة ومهزومة عليه.

الصمت كان كله من حولهما، يحطمه فقط زيز الحصاد في قمم الأشجار، يزقزق في الظلام البعيد فوقهما.

«دع هذا ينتهي، يا آرتيز»، هي همست. «دعني أذهب... وحيدة، بينما الأمور يمكن إصلاحها بينك وبين كوسيما».

«الآن العاصفة هي فوقنا، يا حبيبتي، ويجب أن نواجهها، لم يعد هناك ما نخفيه حول ما نشعر به حيال بعضنا البعض...».

«إنه ملعون»، هي شهقت. «من البداية! إن مانوليتو يضحك علينا من الجحيم! أنا يجب أن أرحل... أنا سأرحل... أنت لا تستطيع أن توقفني!».

«سعادة مزيفة مع كوسيما، وتيا ستتعلم لتقبل بأنني يجب الآن أن أعيش لواحدة أحبها». هو حضن وجه دستين بيديه ونظر بعمق في عينيها الخائفتين. «لا تنظري كأنني على وشك أن أقدم نفسي ضحية في لهب من الدمار، هذا هو لهب الحب،

ونحن نقفز فيه معاً... تعالي، يا حبيبتي! تعالي!».

معاً، كل شيء خلفاه وراءهما، الدموع، القبلات على الخد الحزين للعمة، الجنوب الحار والذكريات، هما سافرا بسرعة عبر الليل، متجهين إلى الحلم الممكن، يتحدثان عن أوستراليا.